مريم خشر

مجازة في الحقوق

باحثة (البادية)

عائشة عصمة تيمور

رسالة جامعية

اعدت باشراف

الدكتور امجد الطرابلسي

الجامعة السورية – كلية الاداب

١٣٧٧ – ١٩٥٨

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الاهداء

اليهم جميعا

سائل الافق الجديد	هل شدا صوت الفريد ؟
وبنفسي نشوة الاف..............	راح في اطياف عيد
ترفع الاستار عن شج..............	و وعن صبح سعيد

يوم اهدى صفحاتي	وهي فيض من حياتي
لست ادرى اى روح ؟	سوف اهديها صلاتي

ألأستاذ ، بتوجيه..............	ه ورشد قد رعاني
ام أب ، قد راح يرنو	من رحاب وجنان
ام لام ، قد حبتني	خفقة غمر الجنان
فاليهم سوف اهدى	ومضات من بياني

وبنفسي نشوة الاف.............. راح في اطياف عيد (١)

---

(١) نظم هذا الاهداء في ١٩ نيسان ١٩٥٨ الموافق ٣٠ رمضان ١٣٧٧ .

مخطط البحـــث

باعثة الادب النسوي الحديث

عائشه عصمت تيمـــور

١٢٥٦ — ١٣٢٠ هـ ١٨٤٠—١٩٠٢م

القسم الاول : عصرها

الفصل الاول : عصرها العام ، عصر النهضة الادبية الحديثة

الفصل الثاني : عصرها الخاص ، عصر اليقظة النسوية في مصر

القسم الثاني : حياتها الشخصية

الفصل الاول : ولادتها

الفصل الثاني : نسبها واسرتها

الفصل الثالث : نشأتها وثقافتها

الفصل الرابع : زواجها

الفصل الخامس : وفاتها

الفصل السادس : اخلاقها

آ — صفاتها الخلقية

ب — صفاتها الخلقية

القسم الثالث : حياتها الادبية : تمهيد

الفصل الاول : شعرها

آ — الاغراض التقليدية : المدح ، الغزل ، الرثاء

ب — الاغراض التجديدية : المجاملة . مرض العيون
مناجاة النفس ، الفخر والاخلاق
والحكمة الشعر الديني

الفصل الثاني : نثرها : نتائج الاحوال . مرآة التأمل . لا تصلح العائلات الا بتربية البنات .

الفصل الثالث : اسلوبها الادبي في النثر والشعر .

الخاتمـــة .

القسم الاول : عصرها

الفصـل الاول

عصرها العام ، عصر النهضة الادبية الحديثة (١)

لم يكد يبزغ القرن الخامس عشر حتى بزغ معه على ربوع الغرب فجر ، مابـرح ينتشر ويعم حتى شمل بنوره نهضة التجدد الكبرى ، وما تولى ، الا وقد جاء بحادثتين بدلتا حظ البحر الابيض المتوسط ومرانئه في الحركة التجارية ، وهما اكتشاف فاسكو دوغاما طريق الهند ، واكتشاف كولومبس العالم الاميركي الجديد .

وبينما كان التطور يتابع مجراه في الغرب حثيثا ، في العلم ، والحضارة ، وامتزاج الشعوب ، والثروة ، والحرية الفردية ، والكرامة الشخصية والقومية ، كانت مصر تتقهقر ببطء ، حتى انقطعت العلاقات بينها وبين العالم . وظلت ثلاثة قرون يحكمها ولاة عثمانيون ، وتدفع الجزية السنوية الى تركيا ، وظهرت فيها طائفة من المماليك (البكوات) واخذت تعشو فيها فسادا ، ففشت الخزعبلات ، والاوهام ، واشتد الفقر مهددا بالامراض والمجاعات ومصر هي البلاد الفريدة بتربتها وتاريخها وحضارتها العريقة وموقعها الحربي بين القارات الثلاث .

وفي هذه الاثناء هبط نابليون الشرق ، طامحا في اشادة عرش يخيم ظله على الغرب والشرق ، ولكنه مالبث ان انسحب عام واحد وثمانمئة والف دون ان يجني اية فائدة حربية .

على ان هذا العمل كان موفور الفائدة لشيء آخر اسفرت عنه الحملة ، اذ تنبه الشعور القومي لدى المصريين ، ولمحوا فيضا غزيرا من المدينة الغربية ، فرغبوا في الاقتباس منها والنسج على منوالها . وصحب نابليون معه جماعة من العلماء المختصين بالشئون المختلفة ، وجلبوا معهم المطابع ، فنشروا الصحف وأسسوا " المجمع العلمي المصري" وجاؤوا بابحاث علمية قيمة ، كان منها وصل البحر الابيض بالاحمر .

ولم يكن الامر ليقف عند هذا التنبه القومي والتقدم العلمي ، وانما تعداه الى الناحية السياسية . اذ كان بين ضباط القوة العثمانية ، التي قاتلت نابليون الجبار ، شخص اعدته الأقدار ليخضد شوكة المماليك ، ثم يسير بمصر في سبيل التكون الذاتي ، ذلك هو محمد علي باشا ، الذى ولد هو ونابليون و " ولنغتون " سنة تسع وستين وسبعمئة والف. وكان من بين رجاله ، رجلان يختلفان اصلا وعملا : احدهما كردى الاصل ، وهو " محمد بك تيمور كاشف بن اسماعيل كرد بن علي كرد "(٢) والآخر تركي الاصل ، وهو

---

(١) — مقتبس بتصرف من حلبة الطراز ص. ٤ ومايليها او من المقتطف مجلد ٦٤ ص ٩ ومايليها

(٢) — معنى كلمة " تيمور " بالتركية الحديد ، وليست هي من قبيل تصغير " تيمور لنك " كما جاء في كتاب " تاريخ الاسرة التيمورية " الاحمد تيمور باشا . والكشوفية : لقب يطلق اذ ذاك على الاعمال في البلاد المصرية .

" عبد الرحمن الاستانبولي " وكان مقدرا لسلالة هذين الرجلين ان تحمل علامة اليمن .فقد تزوج الاول من " عائشة خاتون " بنت الثاني فكانا جدى الشاعرة المباركين .

ولدت الشاعرة قبل وفاة " محمد علي " بتسعة اعوام وتوفيت بعد تولية " عباس الثاني " وبذلك شهدت تطور بلادها في عهد اربعة من كبار الولاة هم : محمد علي ، وابراهيم وعباس الاول ، وسعيد ،وثلاثة من الخديويين هم : اسماعيل ،وتوفيق وعباس الثاني .

بدأ محمد علي عمله في خلق النواة الاساسية للنهضة الادبية ، وتتابع من بعده التطور والاصلاح ، الى ان شبت الثورة العرابية في عهد الخديوى توفيق مطالبة بالغاء الرقابة المالية من مصر . . فكان الاحتلال الانكليزى .

وقد بدأت الحركة اجتماعية بعد ان كانت ميكانيكية علمية ، يمتزج فيها استيحاء الجديد ، بالاطلاع على مؤلفات الاجانب ، ونقل مايتسر نقله الى العربية ، وتجديد القديم باعلاء شأن روح اللغة ، فنشط عمل مطبعة بولاق والمطابع الاهلية ،وكثرت الصحف .
" فساعدت على نشر الاغراض العامة والبحوث المختلفة كما كان الشأن في صحيفة " روضة المدارس" . وقد عملت " دار العلوم " على تخريج جماعة من النابغين على يد استاذهم " الشيخ المرصفي " وكان لوجود المرحوم " الشيخ جمال الدين الافغاني " بمصر ،واختلاطه بطلبة الازهر وشيوخه ، اثر كبير فاستفاد منه عدد غير قليل مثل "الشيخ محمد عبده " وغيره . وبعد ان كان الاشتغال وقفا على الكتابة في الاغراض الخاصة ، اخذت الاقلام تتبارى في تناول الموضوعات العامة : كالكتابة في حب الوطن ، ومايستلزمه من حب الخير ، والحث على الفضيلة ،والتباعد عن الرذيلة ،وحق الحاكم على المحكوم ، والمحكوم على الحاكم . .وغيرها . وتترتب على ذلك تغيير في الاساليب الانشائية وفي الحركة الفكرية وفي الشعور بالذاتية (١)" .

وقد جاء الافغاني مثالا محسوسا لتفاعل الافراد والجمهور . اذ رأى ببصيرته النافذة مايحرك نفوس اخوانه من العوامل المستفزة لنفسه . فتكلم بلغته " الممزوجة ببعض لكنة اعجمية تنم عن اصله الغريب ، وانما وقعها في الاذن كان محبوبا (٢)" . وتكلم فيهم بفصاحته النارية ، فكان له اليد الطولى في تحريض الافكار واضرام الثورة العرابية .

هذا هو الافغاني الذى ارسلت شعلة روحه الشرر من افغانستان . .الى ماوراء النيل حيث مركتيار لقاح .

---

(١) — حلية الطراز حاشية : امين سامي باشا في كتابه " التعليم في مصر ص ٤٦ .
(٢) — لم يكتب الافغاني بيده مقالات ، الا انه انشأ في باريز " العروة الوثقى " مع تلميذه " محمد عبده " وتوفي عن كتابين : تاريخ الافغان ، ونقد للفلاسفة الماديين . حليه الطراز حاشية ص ٤٧ .

ولقد شعر الفكر المتكيف المتغير بوجوب تبديل استاره ، والتجلي بزي يوافق صورته الخفية . فكان ذلك التطاور في نتاج القرائح والاقلام من شعر ونثر ، وان كان في الشعر اسبق وفي النثر اوضح . وظهرت في الشعر الفصيح ضروب من الشعر العامي كالمواليا التي لم يأنف من معالجتها نفر من كبار الشعراء . وتجدد الوجل الطللي . اما وضوح النثر: فجاء من انتشار العلوم الطبيعية والرياضية ، فهال الناس معها الى احكام الامر الا لنفر قليل . فتحدى بعضهم اسلوب الاقدمين من صدر الاسلام ، او من صدر العباسيين ، وتسربت الى اسلوب غيرهم ركاكة لغة الدواوين . ولعل اقرب الاساليب منالا هو اسلوب الصحافة التي كانت ولا تزال ميدانا للعلماء والشعراء والادباء . وقد تحتم عليها التوفيق بين مختلف الاذواق والكتابة ، بلغة يفهمها الجميع على السواء . ولصحافتنا في ذلك تاريخ اغر ، فانها كما سايرت رغبات القراء ، اخذت طريقها في مدارج الرقي والكمال ، حتى صارت صاحبة الفضل الاكبر في رفع المستوى العام للكتابة والقراء معا .

واذا كانت الحالة الفكرية والاجتماعية في تفاعل مستمر ، فكيف كانت المعيشة العائلية؟ كيف كانت حالة المرأة ؟ أكان يصل اليها صدى الخارج ؟ اكانت تعمل لرقي بلادها في دائرة الاسرة وتدرك معنى المطامح القومية ؟ هذا ماسنجد جوابه في الفصل التالي .ولكن يمكننا ان نستبق القول هنا لنرى رأى "امين سامي باشا " حيث يقول :

" كان الاهالي في عصر محمد علي عقبة كؤودا في تعليم بنيهم . . ثم تحققت الرغبة عندهم . . اما تعليم البنات فلم يصادف تسهيلا في عصره حتى اضطر الى اصدار امره الى حبيب افندى سنة احدى وثلاثين وثمانمئة والف بشراء عشر جوار سودا بنات صغيرات ينتخبن بمعرفة " كلود بك " لتتلقي فن الولادة . ومعهن اثنان من اغوات الحريم يتعلمان فن الطب والجراحة "(١) . وكان ذلك قبل ولادة عائشة بتسعة اعوام . ثم تتابع التقدم وتواردت الوفود الاوربية افواجا ومعها البعوث الدينية ،تؤسس المدارس للبنين والبنات حتى صار عددها في عهد عائشة مايقارب الالف . بيد ان المرأة لم تكن بعد قد وصلت الى مرحلة تثقيف نفسها ، بل كانت راتعة في انقطاعها وجهلها ، شأن من اعتاد الهواء الفاسد ، يضيق منه النفس ، ويمتل اذا هو انتقل الى الهواء النقي . حتى انبرى المصلحون متسلحين بصارم الحق واليقين .

. . . . . .

(١) — حلية الطراز . حاشية : التعليم في مصر ص ٤٩ .

الفصـل الثاني

عصر الخاص ، عصر اليقظة النسوية في مصر

قال احد الشعراء (١) :

تأمل سطور الكائنات فانها   من الملأ الاعلى اليك رسائل

لايخفى ان الزمان ادوار ، والايام اطوار ، فدور للصلاح ،وطور للفساد .ودور للعلم ، وطور للجهل . وقد مضت هذه الاطوار بين القرون البالية ،والاعصار الخالية . اذ كان ليل الجهل قد ارخى سدوله ، ومد فيها شراعه ، واقام الاستبداد حجابا بين الشرق وعلومه ،فغشاها ستار عناكب الاضمحلال ، ونبتت عليها اعشاب الزوال . وتنفس الصبح عن فجر الحرية ، وافتر شفره عن در المساواة المنضد . وبدأ منه عمود نـور ، غمر الانام في بحر ضيائه وكاد يخطف الابصار من سنائه ، هو الحرية والمساواة ، اللتان بهما يحيا الحق ويزهق الباطل .

ولقد قطعت الآداب العربية هذه الحقبة الطويلة في عصور صامتة مظلمة ، لم تنرها اقمار النابغات غير نجوم صغيرة ، لاتكاد تشرق حتى تغرب . ثم ظهرت التيمورية ، فملأت عصرها المظلم ادبا ، وكانت نجما ساطعا في سماء الادب العربي ،في وقت غابت فيه النجوم ، وفي حين ، كانت فيه المرأة في ليل دامس ، راقدة في انقطاعها وجهلها. فجاءت عائشة بارقا يبشر بحاضر المرأة المصرية ، بله الشرقية ،ومستقبلها ، فكانت باعثة للادب النسوى في هذه البلاد .

لقد حملت عائشة تاج الادب على رأسها ، فكانت اول من لبسته في نهضتنا الحديثة . وكان نبوغها مبعث نهضة فكرية في بنات جنسها . وعنها قال الاستاذ "رحمي بك" في تقريظ ديوانها : " .. قد ينتج العصر الواحد واحدة ، لها نبأ عظيم تهتدى بمنار عقلها الخلقي الى معالم العلوم . وقد سمعنا ، بمن سارت عنهن الرواة في العصور الاولى ، ورأينا مآثرهن ، شاهدا عدلا ، بأن لهن اليد الطولى .. الا اني اقول .. ان من تعني من النساء اقل فضلا مما يظهر في مثل هذا الزمان .. حيث ضرب الجهل جرانه .. ونسيت محاسن الآداب الشرقية . فمن تظهر بتجديد تلك المعاهد تستحق المقام الاول في الفخر .. مثل عصريتنا صاحبة هذا الديوان (٢)".

---

(١) — بلاغة النساء في القرن العشرين : تقدم المرأة ص ١٢٨ .
(٢) — الشعر النسائي المصرى وشهيرات نجومه . ص ١٢ — حلية الطراز ص ١٢٨ .

وعلى هذا فان حديث اليتمورية يملأ التاريخ اكبارا واعجابا لهذه الروح التي زحزحت ستار الجهل الكثيف ويمكن القول : ان باحثة البادية " ملك حفني ناصف " التي نالت شهادتها في السنة التالية من وفاة عائشة ، سنة ثلاث وتسعمئة والف ، تلقت فصلا من التيمورية وراثة لم تكن باهظة بكميتها ، ولكنها عظيمة بما يجب ان يضاف اليها ، وبالسبل المحفوفة بالصعاب والاشواك التي تعترضها ، فحملت " ملك " النفخة النسوية الاولى ، واضافت اليها نفحاتها ،حتى توفيت ساعة اليقظة الوطنية في مصر . فما غمضت عيناها ،وسكنت حركة قلبها الا وقد انفتحت عيون وتيقظت قلوب . واخذت فكرة تعليم المرأة وتحريرها تتطور في نفوس الرجال الذين زاد طلبهم ، من النساء ،ميزات ومواهب ومعارف ، لم يكونوا ليأبهوا بها من قبل ،وزاد تشوق النساء الى التعليم والاستنارة ولئن لم تنتظم تلك الحركة بشكل جمعيات ، فانها كانت تنضج في سكون وهدوء ، شأن البذرة تحت الثرى ، تنتظر ساعتها لتظهر .

وخطت المرأة مع عاصفة النهضة الوطنية ، الى طور الجرأة والاقتحام ، فاخذت الحركة النسائية شكلا هيوليا بعضه واضح منظم ،وبعضه يجب ان ننظر فيه ، وليست الاصوات المعاكسة لتسكت صوت المرأة وتخرسه . اذ ليس هناك من يقوى على خنق تيار الحياة ، يسرى في جذور هي اعرق جزور الانسانية ، وهاهي ذى تباشر الاصلاح أنى وجدت ،في البيت ، اوالمدرسة ، اوالجمعية ، حيث تتكيف صورة المجتمع.

" وكما يرجع الى " محمد علي " بدء بتاريخ مصر الحديثة ونشأة تطورها ، وكما يبتدىء تيقظ الروح القومية عند الافغاني ، وكما تهب مع مصطفى كامل نزعة العاطفة الوطنية وحب الراية المصرية . . ، كذلك لمعت صورة عائشة ، فكانت رائدة المرأة الجديدة(١) ".

وقد ورد في مجلة المقتطف بتوقيع " احدى قارئات المقتطف " مايلي : " مضى على بنات المشرق قرون ، لم تنبغ منهن واحدة الا ماندر . ولقد كانت نسبة النساء في حلبة الادب قليلة دائما ، ولكنها لم تكد تنقطع الا في القرون الاخيرة . وهذا غير ماكانت عليه الحال في عز الممالك الاسلامية ، وغير ماهي عليه الآن في الممالك الاوربية . ولذلك كنت اعجب بالشاعرة المصرية المرحومة عائشة عصمت بنت المرحوم اسماعيل باشا تيمور "(٢) .

ويقول الاستاذ عبد الحميد حمدى : " كان التاريخ الادبي للمرأة المصرية قبل عائشة قد عفى عليه الزمن من اجيال . واصبحت حواء في مصر سرا غامضا يكتمه آدم . . بل

---

(١) — المقتطف : مجلد ٦٨ ص ٣٧ اصول النهضة النسوية في مصر .
(٢) — " " ٣٧ ص ٦٩٢ بتوقيع احدى قارئات المقتطف : عائشة تيمور .

كانت حواء نفسها تتوارى عن العالم . . ولم تكن عائشة لتفلت من ذلك . . لو لم يكن في طبيعتها شذوذ عن المألوف . . ولو لم يسعدها الدهر بأب شفوق حكيم . فكان شذوذ طبيعتها يدفعها الى الخروج عن مألوف بيئتها . فتقف امها في طريقها تذكرها بما هي مدينة به لهذه البئة من آداب وتقاليد (١)" .

وها هي ذى الدكتورة سهير القلماوى تقول : " اذا كان ديوان عائشة جديرا بالدرس ، فان حياتها ايضا هي شعر جدير بالدرس . شعر يصور تلك الفترة الجميلة من حياة مصر ، وقد اشرق عليها نور فجر جديد ، وهي ماتزال تتمطى في نوره كسله متباطئة ، لم يسرع الى عروقها الدم . . فهي مازالت تنفي النوم ، والنور يضايق عينينها . . (٢)" .

" عصر كانت فيه الهوة التي تفصل بين الامهات والبنات ، هوة سحيقة : فالطاعة عمياء ، والخوف هو المسيطر ولا تعرف الام من امر ابنتها الا انها مخلوقة تعد لان ترثها على اعمالها الكثيرة لفترة وجيزة ، ثم لا تلبث ان تذهب الى بيت آخر . فتزداد العاطفة بينهما بعدا ، ولا يمليها الا واجب قد يذهب الى حد التعصب ، ولكنه دائما وابدا ، الواجب ، لا العاطفة المتحررة التي ترمي بالبنت الى احضان امها تناجيها آلامها وما يصدمها ، اول ماتحتك بالحياة وتتفتح لها ، ولو كانت في قفص من ذهب .

لقد حطمت عائشة بشعرها قيودا ، فملأته عاطفة ورقة اسلوب . ولكنها حطمت في الحياة قيودا اعنف . فكتبت الشعر باللغات الثلاث معبرة عن العواطف التي لا يليق بالفتاة ان تبوح بها ، وانما عليها ان تحب وتكره من وراء ستار . . . فكانت فذة في هذا العصر المتكتم المحتشم . احبت ابنتها وتتبعت خطواتها بكل شغف . كانما قلبها قيثارة قد اسلمت اوتارها الى فتاتها . . فراحت " توحيدة " تلعب بها ، واخرجت لنا " الشاعرة عائشة " من رناتها احلى الانغام ، حتى اراد القدر ان يفجعها في تلك البهجة ، فاذا توحيدة تموت عروسا على وشك الزفاف" (٣) .

هذا هو عصرها ، وتلك هي بيئتها . وقد كللت الجهود بالنجاح ، فانبثق النور ، وسرت الحركة ، واستقبلت مصر عهدا من النشاط فى شتى مرافق حياة نسائها في بيوتهن . وقليلا قليلا ، فتحت النوافذ ، ودخلت الشمس تحمل في شعاعها النور والحياة ، ومعها نغم العصفور الذى استقبل الفجر وفرح به ورآه اول من رأى ، من وراء الافق الرمادى لم ينقشع عنه الظلام بعد كل الانقشاع .

. . . . . .

---

(١) — السياسة الاسبوعية عدد ١٠٢ عبد الحميد حمدى : عائشة هانم تيمور .
(٢) — حلية الطراز : الدكتورة سهير القلماوى ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) — حلية الطراز : الدكتورة سهير القلماوى ص ٢٢ ، ٢٣ .

القسم الثاني

حياة عائشة الشخصية

الفصل الاول

ولادتها

اجمعت المصادر كلها على ان الشاعرة ولدت في القاهرة سنة اربعين وثمانمئة والف للميلاد ، الموافقة لسنة ست وخمسين ومئتين والف للهجرة . وتوفيت في سنة اثنتين وتسعمئة والف للميلاد ، الموافقة لسنة عشرين وثلاثمئة والف للهجرة .

والغريب ان واحدا من هذه المصادر لم يذكر في اى شهر وفي اى يوم كانت الولادة ، كما كان من ذلك في تاريخ وفاتها . والسبب عندى ، انها ولدت طفلة عادية كغيرها من الاطفال ، وماتت شاعرة اديبة ، فمن المعقول ان يعني الناس بها آخر حياتها ، وان لا يكون لولادتها روى وضجة كهذا الذى كان لوفاتها .

وليس هذا الاجماع بالامر الذى ندهش له ، فنحن في منتصف القرن التاسع عشر ، وفي ملء عصور النهضة الحديثة التي تميزت بتنظيم حوادثها وتسجيل وقائعها ، فوفرت علينا " دوائر سجلات النفوس" جهود الجدل والنقاش ، والاخذ والرد ، والتحقيق والتفضيل بين الروايات المتضاربة التي تجابهنا حينما نريد دراسة شاعر او اديب قديم من العصر الاموى او العباسي .

وعلى هذا ، فان السنوات التي قضتها عائشة في هذه الدنيا هي اثنتان وستون من السنوات الميلادية ، وتعادل اربعا وستين من الاعوام الهجرية .

وكانت(١) القاهرة آنذاك عاصمة الديار المصرية ، قبل ان تبدل معالمها يد الهدم والبناء ، وقبل ان تصقل جوانبها يد التحسين والتجديد . مدينة شرقية توالت عليها نوائب التاريخ واختلطت فيها اجناس الشعوب ، وهي لسرها الطويل كتوم . توزعت في مختلف الجهات منها البقايا الاثرية والجوامع البديعة والحمامات والاسواق والسبل المرمرية التي تقدم ماءها العذب لكل ظمآن يرتوى . وفوق المدينة الجاثمة ترتفع المآذن بقاماتها الهيفاء فيخيل احيانا للانسان انها اعلت هياكلها في الهواء الازرق ، لا ليصل صوت المؤذن الى المؤمنين على مسافة بعيدة فحسب ، بل ليكون المبتهل في صلاته اقرب الى باريه وارسخ في الثقة والاستجابة ، وتبدو تلك المآذن طورا آخر كأنها حراب ارسلتها ايادى الاسلام تنبئ الجائب بانها على دوام الاستعداد لدفع طوارئ الاعتداء .

(١) — مقتبس بتصرف من حلية الطراز ص ٥٠ وما يليها .

وفي الشوارع والساحات ، تبصر اخلاطا من الثروة والفقر : اناسا يرتدون الاثواب النفيسة ، وعليها دلائل النعمة والرخاء ، وآخرين يرتدون الاطمار البالية ، وعليهم دلائل الذل والشقاء .اما المنازل ، فانها قائمة على جانبي الشارع ، بواجهات مزخرفة بالنقش العربي ، ونوافذ ذات مشبك خشبي دقيق الفن .

وقد كتب هذه الرحلة العضو في الاكادمية الفرنسية سنة خمس واربعين وست واربعين بعد الثمانمئة والف بعنوان

.

وهناك كتابان آخران وضعتهما سيدة فرنسية وقعتهما باسم مستعار هو " نية سليمة". وهذه السيدة هي الزوجة الاولى لصاحب الدولة " حسين رشدى باشا " وصفت فيهما المجتمع المصرى وعاداته على ما ادركته في اواخر القرن التاسع عشر . اذ انها عاشت في ذلك المجتمع واحبته ، وهو وصف يقرب كثيرا من الحالة التي كانت عليها ايام عائشة كما اعترفت بذلك " هدى هانم حرم شعراوى ".

الكتاب الاول هو :

والكتاب الثاني هو: " رواية المطلقات : " طبع سنة سبع وتسعمئة والف ، قبل وفاة المؤلفة " نية سليمة " .

وقد اتحفتنا المؤلفة في الكتاب الاول بوصف رائع ، ينطق بالحيوية والواقعية لزيارة قامت بها ذكرت فيه بدقة عادة ربة البيت في استقبال الزائرات وكلمات الترحيب والاثاث والرياش ، وعلب لفائف التبغ و . . ، ثم التقاليد المتبعة في تقديم لفائف التبغ والقهوة ، والاحاديث النسائية المتبادلة ، وكلمات التبجيل المبتذل والمجاملة ، ومراسيم الوداع والتسليم والتشييع . . الى ان تبلغ بنا القول : " هب ان هذا المنزل الذى زرناه الآن . . هو منزل " اسماعيل تيمور باشا (١) . وان ربة البيت التي رحبت بنا هي والدة عائشة . فأين عائشة الصغيرة ؟ انها اليوم بنية صغيرة لا تحضر مجالس السيدات".

فلنبق اذن على صلة في الفصول التالية مع عائشة المصرية المولد والنشأة والتربية والمقام ، والتي انجبتها الاسرة التيمورية ، فكانت زهرة من زهرات المجتمع ، ومثلا اعلى للمرأة المصرية الطامحة الى المجد والعلى حتى بلغت الشهرة في جميع آفاق الشرق .

. . . . . .

---

(١) — لقد هدم هذا المنزل كما هدم المنزل الذى سكنته بعد زواجها . وقام على آثارها ابنية جديدة .

الفصل الثاني

نسبها واسرتها

ذكرنا سابقا ، انه لما حضر محمد علي باشا الى مصر ، كان في حاشيته رجلان : احدهما كردى وهو " محمد تيمور " والثاني تركي وهو عبد الرحمن افندى الاستانبولي . وتزوج الاول ابنة الثاني فرزق باسماعيل باشا والد شاعرتنا . اما امها فكانت معتوقة ابيها اسماعيل وهي جركسية الاصل .

فنسب الشاعرة اذن يتنازعه ثلاثة اجناس : التركي والكردى والجركسي .

فجدها لابيها : هو " محمد تيمور كاشف بن اسماعيل بن كرد بن علي كرد " وكان ضابطا ومساعدا في استئصال شأفة المماليك حتى صار من خاصة الوالي . فترقى المناصب . وتوفي سنة سبع واربعين وثمانمئة والف .

وجد ابيها لامه : هو عبد الرحمن افندى الاسلامبولي — ولعله محرف عن الاستانبولي — تركي الاصل . كان كاتبا في الديوان الهمايوني عند السلطان سليم الثالث . ثم صار ذا مكانة مرموقة عند محمد علي .

وابوها : هو اسماعيل باشا تيمور (١) ، ذلك السرى الوجيه ، والموظف الكبير الذى اراد ان يجمع المجد من طرفيه : كرم المحتد ، وفخر العلم وقد الف كتابا فيه خلاصة مطالعاته ، وله كتاب في تاريخ الاسرة التيمورية باللغة التركية . وقد كون لنفسه مكتبة . . فكان هذا الميل وما تابعه من توريث واستعداد . . من حظ شاعرتنا ، ومن حظ آل تيمور فيما بعد ، ومن حظ الادب العربي الحديث عامة . وقد تقلب في المناصب الكبيرة ايام محمد علي وعباس الاول وسعيد واسماعيل ، الى ان كان رئيسا للديوان الخديوى ، وهو — كما يقول اسحاق شموس — رب السيف والقلم . فكان يجيد التحدث والكتابة بست لغات هي التركية والعربية والفارسية ، والفرنسية والانكليزية والايطالية . لذلك كان رئيس القلم الفرنجي للديوان ، وهو مايعادل اليوم منصب وزير الخارجية

ووالدتها : هي جركسية الاصل معتوقة ابيها ، تمثل الطبقة الارستقراطية في ذلك العهد بكل مافيها من تفاصيل .

---

(١) — هو ابن محمد تيمو كاشف ولد في الساعة التاسعة من يوم ٧ ذى الحجة سنة ١٢٣٠ كما قيده والده على ظهر نسخة من قصيدة البردة ولقبه يوم ولادته برشدى وعرف بتيمور زاده اى ابن تيمور .

وشقيقهــــا : هو اللغوى القدير "احمد تيمور باشا" صاحب الخزانة التيموريـــة ، وصاحب المعاجم والابحاث التاريخية واللغوية الخطيرة .

ونجل شقيقها : هو المرحوم "محمد بك تيمور" ، ذلك الروح الذى "ومض" فـــي حياته القصيرة ، فاوجد من الآثار في الشعر والادب والمسرح مايكفي لان يملأ حياة طويلة نشيطة .

ونجل شقيقها الآخر : محمود بك تيمور الذى امتاز بحسن ذوقه واحكام تنسيقه وربط الموضوعات فيما بينها ، ولاسيما في موءلفات شقيقه التي نسقها وتولى نشـــرها وقد ظهرت قدرته الشخصية في نصرته لنزعة التجديد في الأدب الحديث وفي تلك الاقاصيص الريالستية ، التي يرسلها بفـــن حاذق ، مشوبة بمس من الكآبة ، مع ارتياب في الحياة وافهامـــه لانغامها وافراحها . فهو فن يكاد يتخصص له دون سواه في مصر(١) .

وشقيقتاهــــا : اللتان توفيت احداهما في حياتها ، ورثتها في "حلية الطراز" واظن انها "عفت" التي كانت نصيب امها بموجب معاهدة بين الوالدين (٢) والثانية هي "منيرة هانم" التي تزوجت من "علي باشا آصف" وتوفيت بعد وفاة عائشة .

فالدوحة التيمورية اذن واحدة من الدوحات التي منحت اللغة العربية والأدب العربي مالم تمنحه اية اسرة مصرية اخرى : لغويين وشعراء وكتابا وقصصيين ، نهضوا بلغة الضاد وآدابها نهضة جبارة وسعوا الى رفعها الى مصاف اللغات والآداب الشرقية الراقية ، سعيا يبعث على التقدير والاعجاب .

وبعد ان تعرفنا على افراد اسرة الشاعرة ، وتمثل لنا كل بفضله في مضمار الأدب ، يجدر بنا ان نرجع قليلا الى الوراء ، لنعالج مشكلة تكشف عن جانب كبير من عادات عصرها :

ان من العادات المألوفة لدى الشرق ان ابناء العظام والملوك ، يتزوجون مــــن ممتوقاتهم . وقد استهجن كتاب الفرنجة هذه العادة ، ذاهبين الى ان دماء العبيـــد تجرى في عروق اكثرية الشعوب الشرقية . وما هي منهم الا نظرة سطحية . اذ ، ليس اولئك الجوارى من اصل وضيع دائما . فمنهن الكريمات اسيرات الحروب ، وقد قذفت حرب المورة مثلا الى مصر ، كمية وافرة من بنات اليونان ، فمنهن الشريفات المخطوفات ، ومنهن الشركسيات

---

(١) — المقتطف م ٦٨ : اصول النهضة النسوية " لم تمت عائشة " للآنسة مي ص ٣٧٩٦ .

(٢) — سنأتي على ذكرها في ص من هذه الرسالة .

يبيعهن الاهل مدفوعين بحب الرفعة والتقدم لاولادهم ، الذين اذا عاشوا في جبالهم كان حظهم محدودا . اما اذا انتقلوا الى بلاد اخرى عن هذه الطريق ، فلهم ان يتململوا بأكبر الآمال واعلى المراتب. فقد يسمى الصبي قيصيرا مملوكا ألمعيا ،وتصير البنت " هانما " غنية ،ولهم ان يحلموا حتى بالعروش .

ولم يكن الازواج يطلبون من المرأة سوى خصائص الصحة والجمال الجسدي وجودة البنية ، فتزيد او تنقص قيمة الجارية بقدر ماتحوي من تلك الخصائص ،فيخرجونها على اعمال معروفة ،كتدبير المنزل ، واشغال الابرة ،وفنون الرقص والعزف والغناء ،ويربونها على عادات الكبراء وعلى طريقة من الطاعة تتلاقى فيها الانفة والاذعان .

وهناك سبب اجتماعي آخر في مصلحة الجارية ،هو كونها بكليتها للعائلة الجديدة يقول الظرفاء : ان آدم كان اسعد الازواج ، لان حواء كانت " مقطوعة " . فظل حياته في نجوة من صولات اهلها ،وجولات انسبائها ،وقد بدأ الشرقيون يفهمون ان البنت عند زواجها نضجت فسقطت عن شجرتها ، فاضحى اول واجباتها محصورا في العائلة الجديدة التي تنشئها ، كما تتقيد البذرة بالثمرة الجديدة التي كونتها تنفيذا لناموس الطبيعة ،ولقد كان هذا الاستقلال العائلي ، وتقديس حدود البيت ، والتفرغ للاعتناء به ، والقيام بما يعود عليه بالرفاهية والهناء من اكبر عوامل تقدم الامة الانكليزية . وكان نقيض ذلك في كثير من الاسر الشرقية من اهم عوامل التقهقر (١) .

هذا ماكان ينجو منه زوج المعتوقة . وذكرت " نية سليمة " قول سيدة مصرية معتوقة انها ستبتاع في الاستانة زوجة لولدها ، لان " بنات باشاواتنا كثيرات الغنج والدلال اريد لابني زوجة بلا حمو ،ولا حماة لاضمن سعادته (٢) .

هذه هي مبررات مشكلة اختلاط الدم ومسوغاتها . وهي كما نراها من العوامل المساعدة على تأمين الوفاق بين الزوجين . ولكنه على الاغلب وفاق قائم على الاحترام اكثر مما هو قائم على الواجب والحب والتفاهم كما هو الامر لدى والدى عائشة . فتأتي الابنة لتثير النزاع بين الزوجين ، وتريد منها امها ان تكون كسائر بنات جنسها ، ولكن الوالد يرى فيها هذه الومضة من العبقرية ،فيشجع ،ويأمر الام فتطيع . ومن هنا ندرك ان والدة عائشة لم تكن تفهم تشبث ابنتها بالكتب ، بل تراها شاذة ،فتسأل الله عليها الصبر والمعونة . .

---

(١) — حلية الطراز ص ٥٨ ومايليها مقتبس بتصرف .
(٢) — حلية الطراز . حاشية ص (٦٠) .

الفصــل الثالث

نشأتها وثقافتهـــــــــــا

درجت عائشة في بيت يحفه العلم والادب من كل جانب ،وتكتنفه العزة والرفعـة من كل ركن . فأصغت الطفلة بأذينها الصغيرتين الى غير مايصغى اليه . وانحرفت عـن جادة الطريق التي الفتها بنات عصرها ،وخرجت عن سنة لداتها واترابها . . وشـردت وابتعدت . . الى اين ؟ ؟

الى حيث لا يعثر على فتاة تحلم حلمها ،وتخلو خلوتها .

وشاء رب الخليقة ان يسعد هذه الانسانة بوالد شفوق ، فيأخذ بيدها الى حيث تريد ،ويشقق لها السبل الى حيث تشاء ، لما تفرس فيها من النبل والنجابة والذكـاء . وراحا معا برعاية الله يخوضان معركتين حاسمتين ، بعد ان تسلحا بسلاح الحق والحـرية معركة تجاه المجتمع وتقاليده ، ومعركة تجاه الام وجمودها .

وهكذا كان للاب كل الفضل في تشجيعها ، في وقت ندر فيه ان يوءذن للنســاء في التزود بزاد الثقافة . في عصر كانت فيه فكرة تعليم المرأة بعيدة كل البعد عن اذهان الآباء . فاذا كان اسماعيل تيمور قد شذ عن اهل زمانه ،فلأنه كان بطبيعة الحال يميـل الى الادب ،ولانه كان شفوقا حكيما ، يحب ابنته ويدرك ما في مقاومة الميول من خطر . هذا الى ماكان في نفس الفتاة من شذوذ ونفور من حياة الظلام والخمول التي ضلت المـــرأة في مجاهلها .

على ان الام الجركسية لبالمرصاد والتحفز تجاه كل انحراف . انها تشكل وحدهـا جبهة المعارضة . فلا بد لها من رأس يمد ،وصوت يزمجر . وحسبنا ان نستمع الى موقف من مواقفها ترويه لنا عائشة بلسانها :

" فلما تهيأ العقل للترقي ،وبلغ الفهم درجة التلقي ، تقدمت ربة الحنان والعفاف وذخيرة المعرفة والاتحاف ، والدتي ــ تغمدها الله بالرحمة والغفران ــ بأدوات التطريز والنسج ،وصارت تجدّ في تعليمي . . وكنت افر منها فرار الصيد من الشباك ، واتهـافت على حضور محافل الكتاب بدون ارتباك ، فاجد لصرير القلم في القرطاس اشـجى نغمـة واتخيل ان اللحاق بهذه الطائفة اوفى نعمة . وكنت التمس من شوقي قطع القراطيس ،وصغار الاقلام ،واعتكف منفردة عن الانام ،واقلد الكتاب في التحرير . . فتأتي والدتي وتعنفني بالتكدير والتهديد ، فلم ازدد الا نفورا ، وعن صنعة التطريز الا قصـــــورا . فبادر والدي . . وقال لها : دعي هذه الطفلة للقرطاس (١) والقلم ،ودونك شقيقتها

---

(١) ــ وردت هذه العبارة في " شعراء مصر وبيئاتهم " محرفة الى " القرطاس والعلم" والرأى عندى ان القرطاس ملازم للقلم .

فأدبيها بما شئت من الحكم ثم اخذني بيدى وخرج بي الى محفل الكتاب ، ورتب لي استاذين(١) احدهما لتعليم الفارسية ، والثاني لتلقين العلوم العربية . وصار يسمع ما القاه من الدروس كل ليلة بنفسه . (٢)".

وتقول في مقدمة ديوانها التركي والفارسي " شكوفه " : ان والدتها كانت تحثها على تعليم التطريز ،ورأيها "ان هذا المنسج هو اداة النساء ،واستاذ المعارف لبنات حواء" . اما شاعرتنا فلاتراه الا " كالسهم المنيف" . وتقول : بالرغم مما كان متأصلا في نفسي من الميل الى تحصيل المعارف من جهة ، والحصول على رضا والدتي من جهة اخرى فان نفسي مابرحت نافرة من المشاغل النسوية " ،" وكان من رأيي ان اخرج دائما الى قاعة (السلاملك) فامر على من يوجد هناك من الكتاب لاصغي الى نغماتهم المطربة ،ولكن امي .. كانت تتأذى من عملي ، فتقابلني بالتعنيف والتهديد .. اما ابي .. فكان يخاطبها بمعنى قول الشاعر التركي :

ان القلب لا يهتدى بالقوة الى الطريق المطلوب
فلا تجعل النفس معذبة في يد اقتدارك

فاحذرى من ان تكسرى قلب هذه الصغيرة .. مادامت ابنتنا ميالة بطبعها الى المحابر والاوراق .. وتعالي نتقاسم بنتينا : فخذى (عفت) واعطيني (عصمت) واذا كان لي من عصمت كاتبة وشاعرة فسيكون ذلك مجلبة الرحمة لي بعد مماتي (٣) ...

وهكذا انتهت معركة الاسرة ،واسفرت النتيجة عن عقد معاهدة بين الوالدين في اقتسام البنتين ،على ان الام اخفقت في محاولتها رد ابنتها الى الطريق التي تسلكه فتيات الاسر وسليلات البيوتات الكبيرة ، بعد ان اتخذت المحاولة صورة عنيفة اوشكت معها ان تجف نضرة الفتاة ويذوى صباها .

ترى ، هل جرأت عائشة على تحطيم هذا القيد تحطيما تاما الى النهاية ؟ ألم يكن هناك شيء يعتلج في نفس الفتاة دون ان تجسر على الاقدام عليه ؟ .

---

(١) — الاستاذ الاول : ابراهيم افندى مؤنس او " السقا " كما ورد في رثائها له . درّسها القرآن والخط والفقه ،والاستاذ الثاني : خليل افندى رجائي وعليه درست الصرف واللغة الفارسية .

(٢) — الرسالة ص ٤٨٥ حاشية : مقدمة نتائج الاحوال — الهلال م ٣٥ ص٤٠٣ حلية الطراز ص ٦٠ .

(٣) — السياسة الاسبوعية عدد ١٠٢/ ص ١٠ — حلية الطراز ص ٦١ مقدمة الديوان التركي والفارسي .

لقد بدأت الشاعرة فترة تحصيلها الاولى في سن مبكرة ، منذ السابعة حتى الثالثة عشرة من عمرها ، وهي فترة وضعت فيها نفسها بقولها : " كنت مكبة على دروسي ،اجتهد فيها فوق ماكان ينتظر مني ابي . غير انه لم يكن يأذن لي بالخروج الى مجالس العلماء وتولى هو بنفسه تعليمي . . واختصني بساعتين من وقته كل ليلة ،اقرأ فيهما عليه (١) .

فنحن تستشم من نسمات هذه الكلمات رائحة الرغبة في الخروج الى المجالس .ولكن الاب الحصيف لم يكن في وسعه ان يكسر القيد الى آخره ،وحال عصره على ماوصفنا ،سواء اكان داخل البيت او خارجه .

وزبدة القول : ان المصادر التي استقت الشاعرة منها ثقافتها وتحصيلها هي :

- الاستمداد الفطرى .
- والدها الاستاذ الاول .
- السماع الى اقوال الادباء والمجالس من وراء حجاب .
- اتكابها على المطالعة ولاسيما في الدواوين الشعرية والكتب الادبية .
- الاساتذة ،والاستاذات الموجهات اللواتي اجمعت المصادر على استعانتها بهن

وهذا مايبدو متعارضا مع ما اسلفنا ذكره من ان عصرها ضنين بمثل هؤلاء النسوة ،او انه يندر وجودهن فيه . والحق اننا علينا ان نفرق بين مفهومي الندرة والعدم ،فهناك معلمات تتلمذت عليهن في الفترة الاولى والثانية من تحصيلها كما سنرى . وهناك اديبات ومعاصرات يقرأن الآدب ويعرفن الشعر والعروض ، وحسبنا " قارئة المقتطف " الشامية التي زارتها في مصر ، شاهد على ذلك ،وقد سألتها في اول لقاء لها : كيف تيسر لك اخذ علوم العربية والادب مع تعذر مطالبها وتشعب مسالكها ؟ فاجابت : كان المرحوم والدى يأتيني بجلة الاساتذة والمشايخ ، فآخذ عنهم العلم من وراء حجاب ، وكلما اجتمعوا في مجلسه وتذاكروا في مسائل العلم جلست وراء حجابي اسمع اقوالهم ومذاكراتهم ،واكثرت من المطالعة في كتب العلم ودواوين الشعراء من عرب وفرس، الى ان صارت لي ملكة اللغة ، ونظمت مانظمت من القصائد والمقاطيع . واراني متطفلة على موائد الادب . . .(٢)" .
وهذه الجملة الاخيرة تشير الى مافي خلقها من تواضع صريح .

وهكذا نرى ان نبوغ عائشة ، واستعدادها الشعرى النادر حققا رجاء اسماعيل تيمور باشا ، فكانت عصمت مجلبة رحمة وشهرة له ،وكثيرا ما رددت ذكره معترضة له بالفضل كما في مرثيتها له التي ستذكر في حينها .

---

(١) — حلية الطراز ص٦٣ .
(٢) — المقتطف م ٢٧ ص ٦٩٤ : احدى قارئات المقتطف .

الفصل الرابع

زواجها

ليست حادثة زواج عائشة في الواقع الا حلقات متممة لسلسلة تحصيلها الثقافي ولكنها حلقات من لون جديد ، طبعت حياتها الزوجية بطابع الهدوء بعد الثورة ، والفتور بعد التأجج ، ولكن إلى أمد ، لايلبث فيه ان يفجر بركان شاعريتها ، وان يتدفق قلبها مع تدفق عبرات مآقيها ، حينما يفجعها القدر بابنتها " توحيدة ".

لقد تفتق برعم شاعريتها الاول في حادثة لطيفة اثارت عاطفتها ، وكان ذلك حينما اسفرت عن وجهها للطبيعة ، فحنت على الشاعرة الصغيرة ، وراحت تبعث في نفسها خوالج جديدة ، فتتحرك اوتار قيثارتها .

ولنصغ اليها تلقي علينا حديث وحيها : " في خلال هذه المدة ، كنت انظر في دواوين الشعراء ، واعالج النظم بالاوزان السهلة . وفي احدى الليالي ، جاءتني مربيتي بباقة من الورد ، وضعتها في " مشربيتي " وكانت الليلة ليلة البدر . وفيما انا امتع نظرى بذلك ، دعتني امي اليها ، فجعلت باقة الورد في امانة البدر . ثم عدت من عندها ، فوجدت الباقة مبددة . فأحزنني ذلك كثيرا . ووضعت ناصيتي في كفي ، وأخذت أفكر . فجادت قريحتي ببيتين من الشعر الفارسي . وعندئذ ، دخل علي ابي فوجد مابي من الحزن والاسى . وسألني عن حالي . فأنشدته الشعر في خجل وحذر . . لانه كان كلما رآني اقرأ ديوان شعر يقول لي : انك اذا اكثرت من مطالعة الشعر الغزلي فسيكون ذلك سبب زوال كل دروسك من ذاكرتك . اما الآن ، فانه لما سمع شعرى ، اعاد كلامه الاول وزاد عليه قوله : ان الشعر اذا لم يكن باللغات الثلاث : العربية والفارسية والتركية لا تكون له حلاوة . ثم قال : اذا اتممت الكتب التي بدأت بها سآتيك بمعلمة تعلمك العروض . . . فأجبته بأني قد حصلت على قليل من معرفة النظم باللغات الثلاث فطلب مني ان انظم قطعة من الشعر ، فقبلت ذيله وانزويت في غرفتي . . . وبدأت انظم على وزن الرباعيات الذى مطلعه :

عزم ديدار تو دارد جان ما (١)

وجعلتها مع ابيات اخرى تركية وفارسية . وضمت اليها الابيات الغزلية الاتية :

ياشهي الذات ياحلو اللما (١)	ضاع عمري في " عسى ولعلما "
ان عودت النوح مني طالما	قد جرى دمعي بخدى عندما

* * *

(١) — كذا وردت بخطأ في الاملاء . والصواب " اللمى ".

ان سقى دمعي الثرى (١) لست الملوم ... فو سقاني العبد مقدور الظلوم
ذقت حبا والهوى نار السموم ... فاطف زفراتي (٢) بخلاق السما

* * *

مت حرصا فيك ان قربتني ... ودنا اجلي (٣) اذا ابعدتني
ان حرمت الانس اوآنستني ... فعلى كل جوابي اينما (٤)

هذا ما انطلقت به شاعرية عائشة وهي في الثالثة عشرة من عمرها ، وقبل ان يرخص لها رسميا " . ولما اطلع والدها على شعرها ، قال لها : " ان مافيه من غلطات اللغة وسقطات القافية ستستدركينه بنفسك فيما بعد . واذا بقينا احياء الى العام القادم فاني سأدع الكتب التي اقرئك اياها واجعلك تبدئين بقراءة " متن الكافية " ولكن لم يحل العام القادم حتى تقيدت بالزواج . فاغلقت الكتب واسلمت الكراريس للغبار والسكون ، وانشغلت التلميذة المجدة بتهيئة الاثواب الجميلة الزاهية ، والحلي المتألقة الغالية ، حتى اقبل يوم الزفاف العظيم ، يوم تتفتح السماء فوق المرأة ، مرسلة اليها قضاء السعادة او قضاء الشقاء (٥) " .

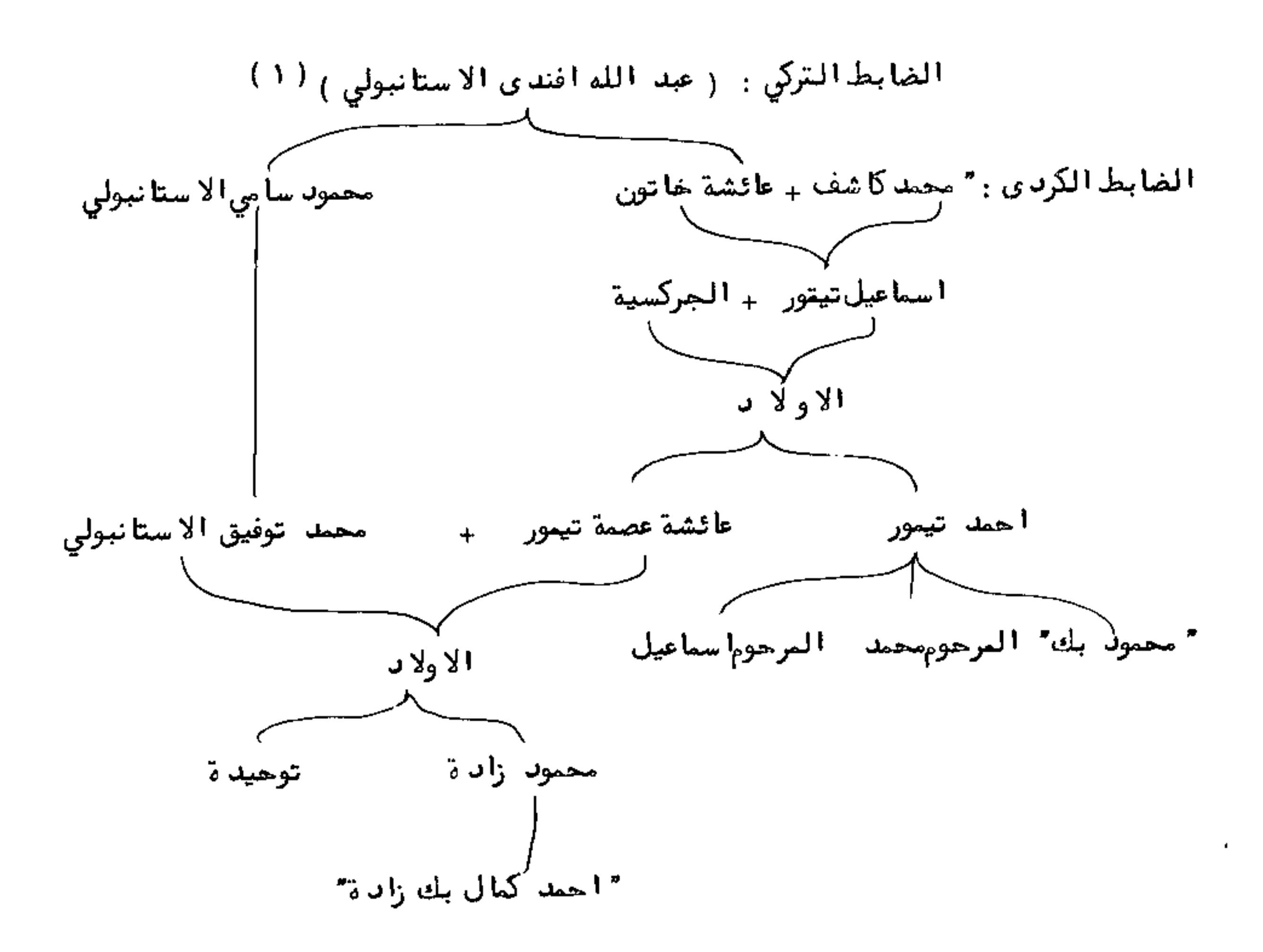
" وهاهي ذي بطلتنا ، ليست شاعرة ، بل عروس في اعوامها الاربعة عشر تتجلى على عرش الصبا والرواء والحب (٥) . "

لقد سكتت الاخبار والمصادر عن مقدمات هذا الزواج . فهل كانت مدة الخطوبة قصيرة أم طويلة ، وهل ترك الاهل للبنت حق الخيار في اختيار الزوج الكفء او لا ؟ ، وهل لها سابق معرفة به ، كأن يكون قريبا لها ، او من رجالات الادب الذين يترددون الى مجالس ابيها ؟ .

وكل ما نعرفه في ذلك هو ان الخاطب هو " محمد بك توفيق " الاسلامبولي نجل " محمود بك سامي الاسلامبولي " بن السيد " عبد الله افندي الاسلامبولي (٦) " او السيد " عبد الرحمن افندي الاسلامبولي " الذي كان كاتبا للديوان الهمايوني عند السلطان سليم الثالث ، وبتدقيق تسلسل نسب اسرة ابيها ينتج ان الزوج هو ابن خال ابيها (٧) .

---

(١) — حذفت الفاء الرابطة في جواب الشرط الجملة للضرورة . وهي قبيحة لمخالفتها القواعد .
(٢) — كذا وردت بتسكين الفاء للضرورة . وهي قبيحة لمخالفتها للقواعد واصلها زفرات بتحريك الفاء .
(٣) — كذا وردت بتسكين الجيم للضرورة .
(٤) — حلية الطراز ص ٦٦ (٥) — نفس المصدر ، ٦٧ ابحاث لمي زيادة .
(٦) — كذا ورد في " تاريخ الاسرة التيمورية " وفي " الاعلام " و " الدر المنثور " . وورد هذا الاسم في الهلال " عبد الرحمن افندي . . . " ولعله هو الضابط التركي الذي جاء مع محمد علي الى مصر " عبد الرحمن الاستانبولي " ولا نملك ترجيح احدهما .
(٧) — انظر الجدول المقابل .



(١) — جدول يوضح تسلسل الاسرة التيمورية .



وقد تم الزواج سنة احدى وسبعين ومئتين والف للهجرة الموافقة لسنة اربع وخمسين والف للميلاد . وقد اضطرت عائشة للانتقال مع زوجها الى الآستانة ،" فطوتها الحياة الزوجية في غمارها ،وملأت دنياها بزوج بهيج ،وبنين وبنات ، فانزوى الحلم الكبير في ركن من قلبها ، وسكتت قيثارتها التي بشرت نغماتها الاولى بمولد الشاعرة ، ومضت الانثى مع تيار الحياة في الطريق الذى سارت فيه قبلها الام حواء تحمل وتضع وترضع وتفطم ، وتمرض وتربي . . في ضجيج لا نكاد نسمع معه همس الحلم المنطوى في اعماقها (١) وبقيت عائشة على هذه الحال حتى شبت ابنتها " توحيدة " فألقت امها زمام امرها وفي ذلك تقول : " وبعد عشر سنوات كانت الثمرة الاولى من ثمرات فؤادى " توحيدة " — نفحة نفسي وروح انسي — قد بلغت التاسعة من عمرها . فكنت اتمتع برؤيتها تقضي يومها من الصباح الى الظهر بين المحابر والاوراق ،وتشتغل بقية يومها بابرتها . . ولما بلغت الثانية عشرة من عمرها عمدت الى خدمة امها وابيها فضلا عن مباشرتها ادارة المنزل . . فتسنى لي ان انصرف الى زوايا الراحة . حيئئذ خطر لي ان استأنف مافاتني في صغرى من تعلم فن العروض . فجئت بمعلمة ، ولكن لم يمض على الشروع في الدرس حتى انتقلت المعلمة الى رحمة ربها ، وكانت بنتي تلازم دروسنا . . فاستطاعت بسبب حداثة سنها وتوقد ذهنها ان تلم بفن العروض اكثر من المامي به "(٢) .

ومن هنا نعلم ان صلة الناس — رغم سيادة الجهل — لم تكن تنقطع تماما عن حياة العلم والادب . وبالتالي ندرك ايضا كيف وفقت عائشة في الحصول على معلمة ومعلمات فلم يكن عصر ليخلو من ارواح تحن اليه ،ولم يكن عالم النساء ليخلو من مثل هذه الارواح .

وقد استطاعت الشاعرة ، بعد ان توفي والدها سنة اثنتين وثمانين والف للميلاد وزوجها سنة خمس وثمانمئة والف ، واصبحت تملك زمام امرها ، ان تتابع الدرس والتحصيل على معلمتين لهما المام بالنحو والعروض وهما : فاطمة الازهرية ،وستية الطبلاوية (٣) .

ونحن لا يسعنا في هذا المقام الا ان نكبر هاتين السيدتين بين السيدات الشرقيات في ذلك العهد المظلم للنساء . في حين ان من يستطعن هذه الدروس عند الشعوب الاخرى اليوم نادرا جدا . وقد ندد الكاتب الفرنسي " الفرد كابوس " بالسيدات الفرنسيات ، لانه ظهر بعد احصاء فئة من المتعلمات ان العارفات منهن بقواعد

---

(١) — حلية الطراز ص ٢٧ : الدكتور بنت الشاطيء .

(٢) — حلية الطراز ، مقدمة الديوان التركي والفارسي شكوفه ص ٦٨—٦٩ السياسة الاسبوعية ص ١٠ .

(٣) — كذا وردت . ووردت في اكثر المصادر " ستيتة " .وجاءت مرة واحدة شقيقة " وهو تصحيف واضح .

النظم واصول البحور الشعرية لا يبلغ الخمس في المئة . فلنشكر الازهرية والطبلاوية عملهما لانهما اضافتا الى مصباح عائشة زيتا يعين على تغذية نوره .

ولكن الدهر الجبار ،ابى الا ان يعكر صفو هذا الانسجام ،والا ان يصرم سعادة ام قريرة العين برؤية ابنتها امامها . وان الايدى التي لعبت على اوتار القيثارة فأفرحت الشاعرة كثيرا ،هي التي ستعكس تركيب هذه الاوتار لتبكيها كثيرا وكثيرا ..

لقد انطفأ نجم " توحيدة " المتألق ،فماتت في ربيع الصبا بعد وقوعها في علة مجهولة كانت ترقبها ،وتنفث في جسدها وهي تكتم امرها رفقا بأمها التي تحبها .

ولتستمع الى الام تحدثنا عن ابنتها المريضة : " قبل ان تنطرح في فراش المرض فاجأتها في احد الاوقات وهي في رداء النوم ،وبين انامِلها قلم تكتب القطعة الاتية :

اسمعًا لي يا اديب	وقصتي ، شرح مريب
قد كنت في روح الصبا	اهتز كالغصن الرطيب
اصبحت حالي عبرة	يبكي على مثلي الغريب
كلا ولا لي منهل	اروى به الا النحيب
فالدمع مني ساجم	والرمس اضحى لي قريب
يارب عجل رحلتي	واغفر ذنوبي بالحبيب

فلما رأتني مقبلة عليها ، دست الرقعة تحت وسادتها بسرعة .. ثم خاطبتني قائلة لا تعبئي يا امي بمثل هذه الثرثرة" (١) .

لقد اقبلت المريضة على عالم السر والرهبة ، فاستمدت منه الحكمة التي تهبط على كل من حاذاه ،واستلهمت الغيب فقامت تعظم بسطوة الراحل ، وحقه على النصح والتوديع الهادئ ، اذ تقول : " عبثا يا اماه تدفعك الشفقة الى معالجة امراضي فانه قد آن الاوان ، ولا مناص من تلبية نداء المنادى . "كل من عليها فان"(٢) . واني اضرع الى الله تعالى ان يلهمك صبر ايوب ، وان يمنحني نعمة رضاك ، فيكون ذلك سبب الرحمة لي ،والتجاوز عن سيئاتي ،وان يصون اخوتي وشقيقتي ". ثم ضمتني الى صدرها فاعتنقنا وبتنا ليلتنا الى الصباح في بكاء وانتحاب ونواح"(٣) .

---

(١) — حلية الطراز ص ٧٢ . حاشية : مقدمة الديوان التركي والفارسي — المقتطف م ٦٤ ص ٩ .

(٢) — القرآن الكريم : سورة الرحمن آية ٢٦ .

(٣) — حلية الطراز ص ٧٢ .

كان ماكان ،وحلت المأساة وقضي الامر ،فأقامت الام المناحة سبعة اعوام متتالية اضعفت بصرها واصابها الرمد ، ولم يجد فيها نصح الناصحين ولا لوم العاذلين ، الى ان اشرقت ظلمات كآبتها " بنور وجود ابني محمود ، فكان فرحة بيت الحزن ".

ولننفذ بسهام لحظنا الى داخل " بيت الحزن " . علنا نستشف شيئا من اخبار عائشة الثكلى .

ولكن اى اخبار نرجوها من قلب حزه الاسى الى المعظم دون ان يرعى شفقه أم ولا حرقة والدة ؟ ونحن لم نعهد بهذا القلب الا كل هافة وحساسية قوية . لقد سبق له ان حزن ويئس لياقة من الورد استودعتها صاحبته امانة البدر ،فخان البدر امانته ، فتدفقت شاعريتها تعاتبه . فكيف بها الآن وقد استودعت عروسا بروائها ونضرتها وحشة القبر ؟؟ .

وقبعت عائشة المفجوعة في " بيت الحزن " منتحبة حزينة . على ان " فرحة بيت الحزن " نجح بمسعاه في مواساة أمه بآية كريمة رددها عليها وهو قوله تعالى :
" وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا : انا لله وانا اليه راجعون "(١)
ثم طلب منها اشعارها ليجمعها ،واشعارها التركية ليطبعها " فتكون أثرا من آثار براعتك وفصاحتك " فقالت : في استطاعتي ان انظم الآن شيئا من الشعر شكرا لله على ما وهبني من النعم . اما اشعارى الماضية فقد كنت احرقتها كلها . . ،ولا اظن ان في مكتبتي الا الشيء اليسير منها بالعربية والتركية . اما اشعارى الفارسية فانها لما كانت في محفظة فقيدتي فقد احرقتها كما احترق كبدى عليها ".

" ان امك يابني لم تبق الآن عندها رغبة في قراءة شيء من كتب الادب " "وسأنصرف الى الانكباب على تفسير القرآن ومطالعة الحديث النبوي . واني وهبتك ماعندى من الكتب والاوراق ،فاصنع بها ماشئت . واذا رأيت فيها جدارة بالطبع فاطبعها"(٢) .

وكان ميل ابنها " محمود توفيق زادة " شديدا لان يظهر فضل والدته . فنشر آثارها واتحف الادب العربي برقد جديد ثمين . وقد تأثر ابنه " احمد كمال زادة ". خطاه . وفي ذلك ،كتب صديقه الاستاذ عبد الفتاح عبادة تمهيدا لحديثه عن عائشة يقول : " دفعني الى كتابة هذه الكلمة ماتفضل به صديقي الاديب النابه احمد كمال زادة

---

(١) — القرآن الكريم : سورة البقرة آية ١٥٥ — ١٥٦.
(٢) — حلية الطراز ، مقدمة الديوان الفارسي ص ١١ احمد كمال زادة .

حفيد التيمورية ،وقد قدم الي شيئا من آثار جدته الشاعرة المصرية العظيمة .. فأثار ماكان كامنا في نفسي من الشغف والولوع بآثارها ،وتتبع اخبارها ،ولاغرو ، فهو " ابن فرحة بيت الحزن " كما قالت جدته عن ابيه .... وكانت رغبة الصديق ،ان يزدان الى صدر هذه الكلمة بنشر صورة جدته لاول مرة في تاريخ الآداب العربية ،اكبر مشجع على التحدث الى قراء الهلال بحديث عائشة عصمت تيمور " (١).

وهكذا بلغنا بعون الله ،وبخطواتنا المتئدة آخر حلقة من السلسلة المعهودة . وتركنا عائشة مكبة على الدروس الدينية ،تطوى الايام او تطويها ،وفتيل شعلتها تأتكله لهبة شاحبة تؤذن بقرب انطفائها .

(١) — الهلال م ٣٥ ص ٤٠١ . وقد ورد في الحاشية مايلي : نعم نسجل هنا ان هذه اول مرة في تاريخ الآداب العربية تنشر فيها صورة امرأة شاعرة مسلمة من شواعر التاريخ واديباته اللاتي احتفي بذكرهن واحتفظ بآثارهن .

الفصل الخامس

وفاتها

لقد صدمت الحياة الشاعرة اعنف صدمة ،عاشت بعدها تلك الاعوام الطوال في وحدة حذرها وراء الحجب الى ان"اصابها وهن المرض الاخير الذى لازمها مايقـــرب من خمس سنوات ،اضنى منها الجسم واقعدها عن النشاط . فلفظت انفاسها الاخـــيرة من هذه الدنيا في اليوم الثاني من شهر يولهو ، لسنة اثنتين وتسعمئة والف للميـــلاد وقد تهادى نعشها الكثير من المشيعين والمترحمين والباكين والناظرين من النوافذ والشرفات وذوى جسم ساكنة القصور في ثرى المقبرة الواقعة في قرافة الامام الشافعي مع من سبقهـــا او لحقها من آل تيمور ،اولئك الذين تقتز بهم دولة العلم والادب" (١) .

" والشاعرة ،التي غردت حينا من الدهر ،اطربت ثم سكتت ،وكان شأنها في ذلك شأن كل حي يسكن بعد حركة ،ويسكته الموت بعد البيان ،لم تلترك العيش دون ان تظفر منه بفهم دقيق لقيم الفن وفلسفته " (٢) .

ويقول حفيدها " احمد كمال زادة " : " اصيبت بمرض اصاب المخ واستمر اربع سنوات لم تستطع معه مواصلة نشاطها حتى قبضها الله الى رحمته" (٣) .

ولقد اجابت الشاعرة دعوة ربها عن اربعة وستين عاما هجريا ،" قضتها بـــين المحابر والمكاتب . فلم تدع للاخيلية مجالا ،ولا لولادة مقالا "(٤) .

وهكذا فجع الادب العربي بوفاة هذه الاديبة الكبيرة . ولا زالت محافل الادب حتى اليوم تشيد بذكرها ، فتسيل على اقلامهم كلمات المراثي ، كالاحتفال الذى قدم فيه الاستاذ " اسحق شحوس " كلمة بمناسبة مرور اربعين عاما على وفاتها .

وقد رثتها " الباحثة " في قصيدة نشرت في مجلة المقتطف ضمنتها الآنسة " مي " لكلمتها تحت عنوان " لم تمت عائشة " ومنها الابيات التالية :

الا يا موت ويحك لم تراع	حقوقا للطروس وللـــيراع
تركت الكتب باكية بكـاء	يشيب الطفل في عهد الرضاع

---

(١) — (٢)— محاضرات عن مي زيادة القاها منصور فهمي ص ٤٥ ، ٤٦ .
(٣) — حلية الطراز ص ١٩ ، احمد كمال زادة " جدتي " .
(٤) بلاغة النساء في ق ٢٠ ص ٨٦ .

ومنها : سنبقى بعد عائشة حيارى كسرب في الفلاة بغير راع

ومنها : لقد احييت ذكر نساء عصر وجددت العلا بعد انقطاع

ودونت الثلاث بنظم در يزيد جمالها حسن اختراع(١)

* * *

(١) — " الثلاث " النظم هي : دواوين عائشة الثلاثة : حلية الطراز والديوان الفارسي والتركي . وقد نشرت هذه القصيدة في المقتطف م ٦٨ ص ٥٣٠ اصول النهضة النسوية " لم تمت عائشة ".

الفصل السادس

اخلاقها

(أ)

صفاتها الخلقيـــة

كل ماوصلنا في هذا الصدد ، عن اخيها احمد تيمور باشا حينما سئل عن وصفها قوله بعد توقف طويل يراجع بها تذكراته ،وبسمة الامل على شفتيه " والله ما اعرفش(١) " والسبب في ذلك انه ولد قبل وفاة والده بسنة واحدة ،سنة احدى وسبعين وثمانمئة والف ، يوم كانت عائشة في الواحدة والثلاثين من عمرها ،تعيش زوجة واما في منزلها . على انه قد وصفها مرة فقال " كانت لا طويلة ولا قصيرة ، لا بيضاء ولا سمراء ،لا سمينة ولا نحيفة" (٢).

وقد اطلعنا ،على جانب من وصفها الجسدى ، عطوفة ادريس راغب باشا الذى رآها في حداثته في احدى الزيارات فقال : " مش في بالي تمام كانت ازاى . لكن كانت حلوة والله " (٣) .

وقد رأتها حرم شعراوى باشا مرة بعد تقدمها في السن ، فوصفتها بقولها : " ان كل ما اتذكره منها ، انها كانت ست كدا (الا توركا) ، بمعنى انها لم تكن (الا فرنكا) (٤) .

من هذه الاخبار وغيرها يتضح لنا انها كانت ذات خلقه متكاملة متناسقة ،ولو وجد فيها شيء من العيب لما كتم عنا ،ولحدثتنا به هي او معاصراتها ، كما حدثتنا بصراحة وظرافة عن عيب طفيف في نطق ابنتها ، رغم انها كانت تحبها اجل الحب . قيل :" زارتها يوما بعض السيدات — ولعل الغرض من زيارتهن ان يخطبن ابنتها توحيدة وهي تجهل ذلك — . فخفت توحيدة لاستقبالهن والترحيب بهن ريثما تحضر والدتها . وقالت ملاطفة بموجب الطقس المألوف" اوحشتونا " الا انها كانت بلسانها لثغة خفيفة قضت بأن تجيء اللفظة "اوحستونا " . وهنا دخلت السيدة عائشة ،فسمعت الكلمة التي حرفها العيب اللفظي فمضت تشرح ذلك العيب على هذه الصورة :

قال العواذل مذ قالت موءنسة " اوحستنا " انها تجفو وذاك غلط
لم يبدل الشين سينا لفظها غلطا بل لم يسع ثغرها الزاهي ثلاث نقط (٥)

---

(١) (٢) (٣) (٤) — حلية الطراز ص ٦٥ و ٦٦ .

(٥) — روى هذه الحادثة الصغيرة توفيق بك اسكاروس الباحث الاديب نقلا عن فضيلة السيد البيلاوى ،وكيل دار الكتب المصرية سابقا ،ونقيب الاشراف فيما بعد ، حلية الطراز ص ١٧ .

وتلك للعمرى طرفة نادرة تدل على قوة ابداعها ،وحضور بديهتها في الابتكار والخلق ، وفي البحث من الحيل لدى الانثى في ستر العيوب او مغالطتها ،فعكست عائشة العيب حسنا وجعلت ثغرها يضيق عن ثلاث لفظ .

واما الآنسة " مي " ، فانها بمجرد الاستسلام لهوى الفراسة — على حد قولها — تصفها كما يلي :

" .. تتصورها طفلة دمثة في العاشرة من عمرها ،تنضح شفتاها المتوسطا الحجم بطلاوة العاطفة ،وشوق المحبة . شفتان تهمان بالافترار لتذوب المستطاب المستساغ من طعوم الحياه ،جاهلتين ماوراء ذلك من حنظل وغسلين ، ونحب ان نتخيل ، في العينين القاتمتين من ،معاني الشجن وغزارة العواطف مايتفق مع معاني الوجوم واللذاذة في الثغر ونكاد نرى تينك الشفتين تختمان بالحظ اللطيف البارز بدقة . . كأنه يشير الى الاوزان التي سيضبط توقيعها العواطف المستفيضة الشاردة ،ويقتنص الزفرات الملتهبة المتدافعة ، ليسبكها فيما يظل منضدا على القرطاس نظيما ، ويظل على شفاه الطروب من الناس شاديا(١)
والواضح ان هذا الوصف اقرب الى طبيعة (مي) وتعلقها بالخيال وحبها للتحليل النفسي .

والذى يمكنني ان استوحيه — على سبيل الفراسة ايضا — وبعد تأملي الطويل في صورتها التي صدر بها ديوانها " حلية الطراز " ، انها سيدة وقور ، تحف بها المهابة ، ويلوح عليها الاشراق ،تقاسيمها مليحة : فمها دقيق ، مجعدة الخدين قليلا ،عيناها دعجاوان واسعتان سيلاوان ،يعلوهما حاجبان يمتد كلاهما عريضا اسود من اول العين الى آخرها ،في تقوس منسجم دون ان يقترنا او يتقاربا ،من اعلى انف ازلف جميل ، تتمايل على جبهتها خيالات التفكير والكآبة ، ذات صراحة في الوجه تشير الى عزيمة واحتشام شرقي ، يشع في ثوب ابيض فضفاض ، لم يبدو منه سوى الوجه واليدين ،وعنق قصير من غير سوء ، احاط به طوق الثوب الى اعلاه ، ومن امام منديل رأسها يبدو بعض شعرها الاسود الغزير ، ينقصه فرق ابيض . . ،كل ذلك في قوام معتدل خفيف وفي اطار من الوقار ، تزدان به ربة هذه الصورة . وان مجرد نظرة الى صورة سيدة وراء مؤضتها ممسكة بيمناها يراعها ، وبيسراها ورقة ، هي وربها اعلم بما تقرأ او تكتب ،اقول نظرة واحدة اليها تكفي لاستلهام ماملأ به الادباء والكتاب صفحاتهم في اكبار وتقدير هذه الشاعرة الجليلة .

ولعل عائشة في صباها ،كانت نموذجا من نماذج الجمال الشرقي ،هو اقرب الى الكمال ،بحيث يجعلها من الجمال بدرجة هي فوق الوسط وفقا لشهادة الطفل الزائر ، وقول السيدة الشعراوى . وعلى هذا فان عائشة كانت من الحسناوات " الحلوات " . وما الحسن الا التناسق التام ، والائتلاف بين الاعضاء . وما احلى الحسن والجمال اذا توجا الادب والعفاف.

(١) — حلية الطراز ص ٥٧ .

(ب)

صفاتها الخلقية

يقول الناس : " الصيت ولا الغنى " . ونحن نقول : " الاخلاق ولا الجمال " فكيف بهما اذا اجتمعا ؟ .

اننا حينئذ نظفر بامرأة مثالية ، هي النموذج الاعلى للكمال النسوى ، وهكذا كانت عائشة : عقلا حصيفا ، وادبا رفيعا ، ودينا متينا .

— اما حصافة العقل . فقد اكتسبتها التيمورية ، بالاضافة الى استعدادها الفطرى من والدها ، استاذها الاول اسماعيل تيمور باشا ، وللوراثة الاثر الاكبر في تكوين الشخصية وتلوين الذاتية .

— اما الادب الرفيع : فقد تناهبته انثى عثرت عليه ، وطوت الكتب والصحف طيا قراءة وحفظا ، مستسلمة الى وحي نفسها ، مستجيبة لنداء شيطان شعرها .

نحن نعجب ونسائل انفسنا : لم يكون هذا الاقبال والاهتمام بدراسة عائشة والرضا عنها من قبل الكتاب ؟ لهل مرجع ذلك، انما مرده الى حلاوة المزاج ، الجامع بين عمق التفكير وسلامة الذوق . وهي خصائص يختص الله بها من عباده من يشاء .

والواقع انه كان لعائشة من الصلات بالمجتمع ، ومن شخصيتها الجذابة المحبوبة مايدينها من النفوس ويهيء لرسالتها النجاح ، فضلا عما اكتسبته بنفسها من التجارب في محيط الزوجية ، ومالقيته في حياتها من صعاب ومتاعب ، كان لها الاثر الصادق في نفسها ، فأثرت بهذا الاثر في مجموع من قرأ او سمع عنها . وحسبنا شاهدا على ذلك تلك التقاريظ وكلمات التقدير التي توالت عليها من المعجبين بها والمقدرين لادبها والراضين عنها ، او من اولئك الاديبات المعاصرات اللواتي كن يقصدنها من الشام وغيرها ، كما كان للاديبة " قارئة المقتطف " واظن انها زينب فواز .

ونضيف الى تلك الصفات ، طبيعة عائشة من النشاط والاقدام ، وحالتها من المزاج العصبي السريع الحساس ، الذى يحفزها لانتهاز كل فرصة للتبشير بمبادئها واقناع من حولها[1]

---

(١) — لقد بثت هذه الاديبة رسالتها الاصلاحية ومبادئها الاجتماعية في آثارها النثرية التي منها " كتاب نتائج الاحوال في الاقوال والافعال" . وفي رسالة " مرآة التأمل في الامور " ومقال " لاتصلح العائلات الا بتربية البنات . " وغير ذلك من هذه الآثار .

ولكن دون ان تحدث من حولها تلك الضجة التي كانت من بعد للباحثة وهدى شعراوى والذى يبدو ، ان لعصر عائشة وطبيعتها المحافظة اثرا في الحد من هذه الثورة والاندفاع وانها حسبها ان تدل المرأة العربية ،وتفتح لها آفاق الشخصية وان تكون نموذجا يحتذى لا صوتا ينادى ،ولا بوقا ينفخ ويدعو .

ولئن اشتركت اديبتنا واليازجية والباحثة في الاعتزاز بالقومية ،وبالنزعة الشرقية وباللغة العربية ، فان عائشة كانت بلا شك اميلهن جميعا الى الروية والاعتدال . اذ كل تجديد يبدأ محافظا قبل ان يصير الى الثورة والافراط .

— واخيرا ، فان هذا العقل الحصيف والادب الرفيع اللذين خصت بهما عائشة قد زانهما دين متين . والجانب الاظهر في هذه الناحية ، يبدو في ان الاديبة افتتحت ثقافتها وتحصيلها بدراسة القرآن الكريم على يد الاستاذ ابراهيم موءنس ، واختتمتها " بالانكباب على تفسير القرآن ومطالعة الحديث النبوى " . فكان من جراء هذه الثقافة الدينية ان املت عليها عواطفها الحساسة شعرا فياضا في الاخلاق والدين ،توجته بهاتين القصيدتين الخالدتين اللتين يجب ان يكونا على لسان كل فتاة ،تستظهر منهما ناشئاتنا ما يصح ان يكون نشيدا لهن ،ومطلع الاولى :

مرارة الصبر خصت بالحلاوات	وجدت في مرها حلو السلامات
وفيها تقول :وما احتجابي عن عيب اتيت به	وانما الصون من شاني وغاياني(١)

ومن قولها في القصيدة الثانية :

بيد العفاف اصون عز حجابي	وبعصمتي اسمو على اترابي
وبفكرة وقادة وقريحة	نقادة قد كملت آدابي (٢)

ولعائشة آراء اخرى في الدين والاخلاق ، ولا سيما في السفور والحجاب ، فرجيء التوسع فيها الى القسم الثالث من هذه الرسالة .

وهنا تعجبني جدا الكلمة التي جاءت بها الزائرة الشامية " قارئة المقتطف وفيها تشير الى احتشامها واعتدالها في الزينة من جهة ،والى تواضعها وحسن خلقها من جهة ثانية ،وفيها تقول :

" قصدت زيارتها ، فرأيت منها دعة ، وعزة نفس ،وذكاء ،وسعة اطلاع وتبصرا في الامور ،وسرعة خاطر . وكنت أراها ساذجة في لبسها ، لم ار عليها حليا قط ولا حللا ،

---

(١) — حلية الطراز ص ١٩٦ الشعر العائلي .
(٢) — حلية الطراز ص ٢٦٥ الشعر الاخلاقي .

كأنها تحسب ان حلة الادب تغني عن حلة الذهب(١). ومن جملة الاحاديث المتبادلة بينهما قول عائشة لها : " .. ونظمت مانظمت من القصائد والمقاطيع . وأراني متطفلة على موائد الادب .." (٢).

وهكذا نرى ان نبوغ عائشة ،واستعدادها الفطرى النادر للشعر وثقافتها المكتسبة ، قد حققت كلها رجاء ابيها اسماعيل فكانت مجلبة رحمة وشهرة له .

... ...

(١) (٢) — المقتطف م ٢٧ بتوقيع "احدى قارئات المقتطف " ص ٢٩٤ .

القسم الثالث

حياة عائشة الادبية

تمهيد

علمنا مما تقدم ان عائشة درجت في بيت كانت تعقد فيه المجالس الفكرية والثقافية وترعرعت في اسرة عريقة في العلم والادب ،تلك الاسرة التي انجبت لغويين وشعراء وكتابا وقصصيين . فقول التيمورية الشعر اذن ، ليس بالامر الغريب ولا بالحدث الشاذ .

على ان الامر الذى يدعو حقا الى الدهشة والعجب ، انما هو نبوغ امرأة مخدرة وحوزها ،بحق وجدارة ،وسام لقب " الاديبة او "الشاعرة " في لغات ثلاث ، هي العربية والتركية والفارسية . في حين انه يندر ان يجيد انسان اكثر من لغتين اجادة يصح معها القول " ان كل لسان في الحقيقة انسان"(١) . ذلك ان مجيد اللغة ،على حد تعبير الروحانيين ، يتقمصها حق التقمص ، ويصبح كأنما له شخصيتان يعسر عليه ان يضيف اليهما شخصية ثالثة . فما هو سر هذه الموهبة ؟ .

اما اللغة العربية : فهي لغة وطنها الجديد ، مصر. ولغة نبيها وقرآنها ،لغة الامة العربية والثقافية الاسلامية منذ ان كان العرب والاسلام الى ان يكون الفناء . وقد " مهرت هذه اللغة نفسية التيمورية — على مايتنازع اصلها ثلاثة اجناس ، الكردى ، والتركي والشركسي — بطابعها المكين ،وصبغت قولها بصبغتها الظاهرة . وبذلك كانت في ميدان العروبة من رائدات الشعر النسوى العربي الحديث . لان اللغة حين تتغلغل اساليبها وآدابها وموحياتها في النفوس ، تصبح في تلك النفوس خاضعة لتبعية تلك اللغة وسلطاتها ، وان يكن الشخص شديد الصلة بجنس من الاجناس"(٢) . ومن الراجح ان ماقدمته التيمورية من آثارها في اللغة العربية ، يفوق ماكان منها في اللغتين ،الفارسية والتركية .

اما اللغة التركية : " فهي لغة وطنها الاول ، وهي لغة لايزال التخاطب بها في بعض الاسر ذات الاصل التركي (٣)". وكانت في عصرها ، والى زمن غير بعيد لغة الملة السلطانية الرسمية الى جانب اللغة العربية . واني ، وان كنت اجهل

---

(١) — حلية الطراز ص ٩٨ .

(٢) — محاضرات عن مي زيادة القاها الدكتور منصور فهمي ص ٥ .

(٣) — حلية الطراز ص ٧ . او المقتطف م ٦٦ .

اللغة التركية ، اعتقد ان بينها وبين العربية كثيرا من التقارب في الالفاظ والتعابير . ويمكن رد ذلك الى ظاهرة التداخل اللغوى من تعريب وتتريك ،وذلك بحكم الجوار . ويعزى ايضا الى ان لغة القرآن قد وحدت الى حد بعيد لغة العالم الاسلامي ،ولا سيما في المصطلحات الدينية والاخلاقية ، ثم ان رسم التركية ظل الى زمن غير بعيد بالحروف العربية ، الى ان ظهرت في نهاية القرن الثامن عشر فكرة اتى بها العالم الفرنسي " فولوني : وهي : ان مبدأ الصعوبة الذى نصادفه في دراسة اللغة العربية ، انما سببه الكتابة . عظم فكرة يبني الحروف الرومانية واللاتينية . ولكن المبدأ الذى لقي قبولا من الاتراك ، لن يصادف لدى المجتمع العربي باسره الا المقاومة والعداء " ، " وذلك لاسباب قومية ودينية واجتماعية وفنية واقتصادية "(١) على ان الفكرة التي استجاب لها انصار كثيرون في مصر ،امثال عبد العزيز فهمي ،وتوفيق الحكيم ، لم يكتب لها ان تقف على رجليها .

كل هذه الدواعي كانت عاملا في ان ينطلق لسان كل شاعر او اديب باللغة التركية في عصر شاعرتنا عائشة .

واذا كانت اللغة التركية هذا شأنها ، فما بالنا واللغة الفارسية ؟ انها " لغة لفئة من ادباء العرب والترك ، شأنها عندهم شأن اليونانيق واللاتينية عند الغربيين (٢)" ان هذه اللغة على حصانتها وارستقراطيتها لم تتهيأ للشاعرة وتصبح طوع بنانها الا بعد ان تتلمذت على ابيها ، وعلى استاذها " خليل افندى رجائي " ،ثم انها اكثرت من مطالعة الدواوين الفارسية . وقد اعارت هذه اللغة اهتمامها الاكبر ، حتى ان اول عهدها بالنظم كان باللغة الفارسية كما حكت ذلك عن نفسها في حادثة " الزهور"(٣) .

وعلى هذا ، تكون الآثار الادبية التي خلفتها عائشة هي : ثلاثة دواوين ،في كل لغة ديوان . الى جانب كتب ورسائل نثرية تولى ابنها البار " محمود زادة " طبعها بعد الحاح طويل . وهذه الآثار الادبية هي :

<u>حلية الطراز :</u> وهو ديوانها باللغة العربية . وآخر طبعة له في القاهرة دار الكتاب العربي سنة اثنتين وخمسين وتسعمئة والف . افتتحت الشاعرة خطبة " بحمد الله الذى اطلع شموس البلاغة المشرقة " . واختتم بجملة من تقاريظ الشعراء والادباء المعاصرين . وقد طبع

---

(١) — " " للمؤلف بلاشير مع تعريب وتعليق الدكتور المشرف — وفولوني عالم فرنسي (١٧٥٧—١٨٢٠) .
(٢) — حلية الطراز ص ٩٧ .
(٣) — " " ص ٦٤ او ص ١٤ من هذه الرسالة .

قبل هذه المرة ، وكانت القصائد فيه غير مرتبة ولا مبوبة . فتفضلت الدكتورة " سهيرالقلماوى" يترتيب قصائده وتبويبها على طريقة الآنسة " مي " . وقد عثر بين اوراق شقيقها المرحـــــوم " احمد تيمور باشا " على اضمامة اوراق ، كتب عليها انها للسيدة عائشة لم تنشـــر . وهي مكتوبة بخط الراحلة كتابة اولية . . . فاستغلق فيها بعض الكلمات والحروف بســـرعة الكتابة واختلاف الاملاء . فانتخب من هذه القصائد ماتيسر قراءته وامكن ضبطه . وقد تولـى هذا العمل " محمد شوقي امين " العضو باللجنة . فراجع الديوان المطبوع ، واستدرك مافيه من اغلاط وحقق القصائد المخطوطة في اوراقها . وضبط من الكلمات والحروف ما استوجـب الضبط ، وكتب التعليقات في هواشي الصفحات وبذل جهدا في ان يخرج الديوان في هذه الحلة التي تتجلى فيها ،فأحيا بذلك ذكرى الشاعرة ، واهدى ديوانها الحافل الى اخوانه الناطقين بالضاد في الشرق والغرب (١) .

٢- ديوان شكوفة او اشكوفة او شكوفة وهو الديوان التركي والفارسي . طبع في الآستانة ومصـــر وايران . ومعنى كلمة (شكوفة) بالفارسية : (زر الورد) وقد تستعمار اللفظة لتسميـة الاعلام في المؤنث (٢) وماعداها فهو تصحيف باطل .

٣- نتائج الاحوال في الاقوال والافعال : طبع في عصر فسنة خمس وثلاثمئة والف في مطبعـــــة محمد مصطفى . وطبع ايضا في تونس . وهو كتاب ادب بشكل قصة او مجموعة قصص عن ملـــك وابنه وبلاطه وما يدور فيه من دسائس ومؤامرات على نسق الف ليلة وليلة وبأسلوب المقامات.

٤- مرآة التأمل في الامور : طبعت الرسالة الاولى بمطبعة المحروسة سنة ثلاثمئة والـــف. وطبعت الثانية في مطبعة النيل . وهناك كتاب يدعى : "لسان الجمهور على مرآة التأمـل في الامور " للاستاذ عبدالله واقي الفيومي (٣) " .

٥- مقال : " لاتصلح العائلات الا بتربية البنات " نشر في " جريدة المؤيد ". وتقول " زينـت فواز " : انها اخذت هذا المقال من جريدة الآداب " الصادرة يوم الاثنين الموافق لتسع خلت من جمادى الثانية سنة ست وثلاثمئة والف للهجرة . وثمان وثمانين وثمانمئة والف للميلاد والى جانب هذا المقال مقالات اخرى وبحوث اجتماعية قيمة نشرت في صحف زمانها .

٦- روايات تمثيلية ،مثل بعضها ،مثل رواية " اللقا بعد الشتات " ،وفقد معظمها . الا انـني لم اعثر على شيء من هذه التمثيليات .

والى جانب هذه الآثار النثرية هناك مجموعة من الرسائل الخاصة التي تبادلتها التيمورية مع ذويها وصديقاتها ،وكلمات التقريظ التي وجهتها الى ادباء واديبات عصرها ، اوتوجهت اليها ،سواء اكان شعرية ام نثرية .

---

(١) ـ حلية الطراز ص ٨ ، ٩ . مقدمة بقلم خليل ثابت رئيس لجنة نشر المؤلفات التيمورية اقتبستها بتصرف .

(٢) ـ اقتبست هذه الترجمة من قنصل ايران السيد " محمد فروزان " ،والملحق الثقافي الايراني في مقابلة ثقافية خاصة جرت لي معه .

(٣) ـ معجم المطبوعات العربية : عمود ١٢٥٦ .

الفصل الاول

شعرها

لقد سايرت المرأة العربية الرجل في قول الشعر ،وجارته في ميدان الفصاحة والبيان فهل وفقت في ذلك توفيق الرجل ؟ ام انها تخلفت عنه . وهل طرقت جميع الفنون الادبية ام انها تحاشت الشائك منها ؟ ثم ، ماهي الفنون الشائكة في نظرها ؟ .

لقد طرقت المرأة الفنون الشعرية كلها ، من وصف ، ومدح وهجاء ، ورثاء ، وحماسة ، وفخر ، ونسيب ، وحكمة ، ووفقت في ذلك توفيق الرجال . ترى : أجالت شاعرتنا في كل هذه الاغراض ؟ .

اذا تصفحنا ديوانها الموجود بين ايدينا ،نرى انها جالت في جميع الاغراض التقليدية ،واضافت اليها اغراضا مستحدثة املتها عليها ظروفها الخاصة : فوصفت الرمد ومرض العيون ، وكتبت في حلية الفتاة ، وشعر المودة ،وجادت قريحتها في اغراض قومية واجتماعية ، ومجاملات ، ومناسبات .

وان مانظمته في مثل هذه الاغراض ، وماقالته من المواليا والادوار والازجال المبتكرة والموشحات البديعة . . كل هذا يشف عن اطلاع واسع ، وحفظ كثير ، الى جانب ماخصها الله به من موهبة الذكاء ، وخاطر سريع ، ونفس زكية . " ولو سمحت لها عادات المشرق بمطارحة الشعراء ومساجلة العلماء ،ولو تعلمت لغة اوربية واطلعت على ماقاله غيرها من شعراء اوربا ، لتركت لنا من الآثار اضعاف ما ابقته في حلية الطراز" (١) . ومع ذلك فانه " لما نشرت موءلفاتها ، سارت في حديثها الركبان الى اقصى العمران ،وطار صيتها الى الآفاق ، ووردت اليها التقاريظ من كل جهبذ اديب ولوذعي اريب " (٢) .

ان مثل هذه الاحكام والاقوال لاتخلو من روح المبالغة والتهويل على عادة المقرظين في تلك الايام ، الا ان هناك كلمة لطيفة جديرة بأن نثبتها قبل الشروع بدراسة ديوان عائشة تقدمت بها الاميرة قدرية حسين وفيها تقول :

" لاريب في ان الناقد الادبي حين يتعرض لتمحيص ديوان عائشة في اللغة العربية يجب ان يوازن بين شعرها ، وبين ماكان يجرى عليه الشعر العربي في ذلك الحين . . ،

---

(١) — المقتطف م ٢٧ ص ٦٩٤ .

(٢) — معجم المطبوعات عمود ١٢٥٦ ، الدر المنثور ص ٣٠٣ .

فاذا عقد الناقد هذه الموازنة الدقيقة ،وجد في شعر التيمورية ،ممثلا قويا رائعا من بلاغة الشعراء في ذلك العصر الذي يعد فجرا للنهضة الادبية بعد ركول طال امده " (١) .
فالاميرة اذن لم تطلق حكمها في فضل الشاعرة ،انما قيدته بتلك الموازنة وذلك الامد .
ولكن ما هي الخواطر التي جالت في دماغ الشاعرة ودفعتها الى قرض الشعر ؟ انها فعلت ذلك — على حد قولها — تحديا لعن سبقها من ذوات الحذر والاحساب :

ولقد نظمت الشعر شيمة معشر قبلي ذوات الحذر والاحساب

او كما قالت : ما قتلهالا فكاهة ناطق يهوى بلاغة منطق وكتاب (٢)

وسنمضي فيما يلي في دراسة الاغراض التقليدية في شعر عائشة اولا ثم نلحقها بالاغراض التجديدية .

— أ —

الاغراض التقليدية

— ١ —

المدح (٣)

سبق ان ذكرنا ان الفتاة لم تكن تشعر ان اقبالها على الشعر ،يخرج بها عما ينبغي ان تتحلى به الفتاة من التعفف والاحتشام . في حين ،ان امها رأت ان في ذلك تقليدا لاعمال الرجال . والى ذلك تشير الفتاة في ابيات رقيقة ، فيها مفاخرة وغرور وبراءة وسذاجة فتقول :

بيد العفاف اصون عز حجابي وبعصمتي اسمو على اترابي (٤)

على ان ثورتها تقتحم شاعريتها في اساليب واغراض معينة ،منها المدح . وعهدنا بهذا الفرض ان يكون من اختصاص الشعراء الرجال ،فلم يسبق لصوت امرأة ان ارتفع في هذا البيان الا ما ندر (٥)

---

(١) — حلية الطراز ص ه

(٢) — = = = ٢٦٥ القصيدة البائية في الشعر الاخلاقي .

(٣) — وانما سميته هنا مدحا تجوزا . اما الآنسة "مي" فقد سمته "شعر المجاملة"

(٤) — حلية الطراز ص ٢٦٥

(٥) — لا تنسى في هذا المقال الشاعرة العربية "ليلى الاخيلية" ومدحها للحجاج "إذا نزل الحجاج أرضا مريضة تتبع اقصى دائها فشفاها .

واذا ما عجبنا لشاعرة ترسل مديحها من وراء حذرها الى خليفة او مليك او امير ، فان عجبنا يزول اذا علمنا ان شاعرتنا خصت بمناسبات وظروف لم تهيأ لسواها من بنات جنسها . فانفتح امامها باب الشاعرية على مصراعيه ، تجول فيه وتصول . لقد كانت عائشة ، بالاضافة الى رفعة منصب ابيها ، عمدة في بلاط الخديوى ، وكان " اسماعيل " يدعوها لتترجم له عند حضور اقارب ملوك العجم . وكانت عربة الشاعرة تسهم في كل عيد او موكب او احتفال نصر او تولية . فتزهو نفسها ، وتتحرك احاسيسها ، وتطلق لقريحتها العنان في البيان .

وقد قصرت الشاعرة مدحها على العلية الخديوية . غير انها وان جارت الشعراء في الاسراف والغلو في مدح الخديوى الا انها لم تكن لتجاريهم في اتخاذه اداة للتكسب . ومن غلوها قولها في مدح الخديوى توفيق :

والله قلدك المهابة والبها	مفنا ، وانت بما حبيت خليق
فالنصر عزمك والزمان مطاوع	والسعد عبد والكمال صديق (١)

على ان هذا الغلو لا يبلغ مبلغ ابن هاني في مجاراته عقيدة الفاطميين ووصفه الممزلدين الله في مقام الانبياء والرسل ، اذ يقول .

ما شئت لا ما شاءت الاقدار	فاحكم ، فانت الواحد القهار
وكأنما انت النبي محمد	وكأنما انصارك الانصار (٢)

ولم تكن عائشة تفرق في مدحها بين خديوى وآخر . فقد مدحت اسماعيل ، وتوفيق وعباس . . ، فكأنما مدحها موجه الى الخديوية نفسها لا الى الشخص بالذات ، او ان كل من يتنسم اريكة الخديوية يصبح في نظرها اهلا للمدح . ويتسم مدحها بسمة المشابهة للعرش في قصائد الثناء ، وفيها تتلخص عاطفتها الوطنية ، وتثبت حبها لجو مصر السعيدة ، ونيلها الفياض . فلنستمع اليها في كلام حلو رنان تهنيء فيه الخديوى بالعودة :

كللت تاج البدر قربا بالشرف	مذ حل في " مصر " ركابك والشرف
وازينت بكر الحبور واصبحت	مجلوة بين الرفاهة والترف
وتراقصت مهج النفوس لبشرها	كيلا بل غردن في روض انف
ثم تؤرخ لها بقولها : رقمت جمال تيها قدومك " عصمة	بمداد تحبير ، سناه شفى وشف
وبمعجم في معرب قد ارخت	" كللت تاج البدر قربا بالشرف " (٣)

١٧٣٧ ٣١٣ ٣٠٣ ٢٣٧ ٤٠١ ٤٨٠

---

(١) — حلية الطراز ص ١٥٥

(٢) — ادباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث ص ٣١

(٣) — حلية الطراز ص ١٥٤ . وهذه الارقام من احصائي .

صحيح ؟ ان هذا الكلام — على حد تعبير الآنسة مي — حلو ، ورنان ، وفي منتهى اللطف ، وفيه نغمة ، شعرية منعشة ، الا ان التيمورية ، قد شحنت ابياتها هذه بالالفاظ والتعابير الغزلية ، فأسبغت عليها رواء الانوثة المنعكس من طبيعة مشاعر نفسها . وكأنما كانت الشاعرة حريصة في كل غرض او فن من شعرها على تضمين الابيات كلمات من القرآن الكريم . فقد اقتبست هنا كلمة " ازينت من قوله تعالى " حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت ، وظن اهلها انهم قادرون عليها ، اتاها امرنا ليلا او نهارا . . ." (١) كما انها صاغت بيتا كاملا من هذه القصيدة من قوله تعالى : " الله نور السموات والارض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة " (٢) . اما هي فقد قالت :

والله يا مصباح مشـ ـة العلى   بك سرت الدنيا ومن فيها شغف

وقد اسهمت التيمورية ايضا في تقليد السلف في الاسلوب والصفة وتوشيح الشعر باسمها واسم مصر والنيل ، والتأريخ للحادثة . الا ان كل هذا كان من مستلزمات العصر .

ونرى التيمورية في قصيدة اخرى تلتفت الى مصر الحبيبة ، فتزف اليها البشرى والابتهاج وتيجان الصفا بتولية الخديوي توفيق (٣) .

بشراك يا " مصر " عم الفيض فابتهجي   وزال ما بك من اثم ومن حرج
تيجان يمن الصفا اضحت تكللها   بدر السرور بفوز دائم بهيج

ثم تقلده الولاية ، وتبين ما يتحلى به من العدل والاصلاح ، وبذل الفضل لمن يقصده ، وكيف انه لا يشغله شاغل عن فعل الخير وسعادة مصر :

يسوس بالعدل والاصلاح امته   ويبذل الفضل والجدوى لكل رجي
سوى سعادة " مصر " ليس يشغله   وغير ابواب فعل الخير لم يلج

مؤرخ الحادث :   والدهر رنم بالبشرى يؤرخه   يا " مصر " قد زانك التوفيق بالفلج (٤)

١٢٩٦   ٣٤١   ١٠٤   ٧٨   ٦٢٧   ١٤٦

واذا كان عهدنا بشعراء المدح ان ينشدوا مدائحهم بين يدى مليكهم فان " صاحبة الفكرة الوقادة والقريحة النقادة " تأتي بابتكار لطيف وفتح عجيب وجديد في تاريخ المدح

---

(١) — حلية الطراز ص ١٥٤ . وهذه الارقام من احصائي .

(٢) — القرآن الكريم سورة يونس (١٠) آية (٢٤) — النور (١٨) آية (٣٥)

(٣) — حلية الطراز ص ١٥٦ ، ١٥٧

(٤) — حلية الطراز ص ١٦٥ وما يليها "والفلج : الفوز والظفر .

المربي ، ذلك انها راحت ترسل ابياتها لتطرز على الاثواب ، او لتكتب على لوحات الزينة ، كما كان منها عند مرور الخديوى بمدينة " بنها العسل " :

البشر اجرى ب " بنها " انهر " العسل " والنصر اضحى " بتوفيق " السعود جلي
والارض قد البست ابهى مطارفها وازينت في بديع الحلي والحلل
تهلل القطر بشرا من زيارته وايقن القوم حسن الفوز بالامل (١)

على ان هذه اللهجة الهادئة لا تلبث ان تصطبغ بالجد في قصيدة الترحيب — بالخديوى " توفيق " بعد ثورة عرابي باشا " اذ تقول :

الله اكبر يوم آب عزيزنا عيد كبير زانه التشريق
رفعت له الاعلام يوم قدومه وبلالها في الخافقين خفوق (٢)

الى ان تبلغ بها الصراحة بنزعتها السياسية الى حد استنكار الثورة والتعريض بزعمائها بعد ما اصابهم النفي والتنكيل ورميهم بالكفر والزندقة والظلم والمكر .

كفروا بانعم فيض جودك التي تربو على قطر الندا وتفوق
ظلموا نفوسهم بخدعة مكرهم والمكر يصمي اهاله ويحيق (٣)

ونحن بدورنا نستنكر هذا الموقف من الشاعرة ونستغربه ،لولا ان نتذكر ان لاصلها (التركي الكردى) ولعيشتها الاستقراطية بين الاسرة المالكة ، كل الاثر في ذلك . فما رأته هي اعلاما وموكبا نراه اكفانا وجنازة تعبر شوارع القاهرة . فالشاعرة في واد ، والشعب والرأى العام في واد آخر .

وقد خصت التيمورية مدح الخديوى بقسم كبير من ديوانها . لانه في نظرها يمثل الزعامة السياسية والدينية معا . وهو وزره خليق بالطاعة العمياء . الا انها لم تجز من وراء ذلك مغنما

وسترى ان الشاعرة التي وفت الاريكة الخديوية حقها ، فأضفت عليها المدائح — والقصائد ، ستؤدى واجبها في الرثاء حق الاداء .

---

(١) — حلية الطراز ص ١٦٤ .

(٢) (٣) حلية الطراز ص ١٥٥ . والبيت الاخير مقتبس من قوله تعالى " ولا يحيق المكر السيء الا بأهله " فاطر آية (٤٣)

الغـــزل

وكما اقتحمت ثورة الفتاة شاعريتها في المدح ، فكذلك اقتحمتها في الغزل ،وقد يكون ايضا من الشذوذ ان نسمع امرأة تغزلت . لان هذا من حظ الرجال . ولكن ،لماذا لا تتخذ المرأة الرجل ملهما لها ،وموحيا كما يفعل الرجل ؟ اليست خفقات القلب واحدة ؟ الواقع ، ان للقلب على الاطلاق خفقا مليئا بالحيوية والنشاط ،فلا عجب ان نسمع امرأة تتغزل ، لانها في ذلك تجارى سنة الطبيعة والكون .

وترى مدام سنابل ان "الحب عارض في حياة الرجل ،ولكنه حكاية في حياة المرأة "(١)

"ان الحب يسير عند المرأة سيره الطبيعي من الوالدين الى الاخوة والاخوات والاقارب والاصدقاء . ثم يتجه في حيته الى الخاطب ، فالزوج ، فالولد ،فالاسرة الجديدة بفروعها . ورغم ان هذا الحب هو نسيج حياة المرأة ،فان الرجل سد في وجهها باب الانتباه الى عواطفها المشروعة . . . حتى كان عهد عائشة التي تعد من طليعة نساء العهد الجديد ، المتعرضات الى حقهن في حرية العاطفة ومشروعيتها ، ضمن حدودها الطبيعية . . في الشرق ،وفي العالم المتمدن اجمع" . (٢)

كانت اول نفثة عاطفية ارسلتها الشاعرة الصغيرة هي الابيات الغزلية الفارسية التي نظمتها في " حادثة الزهور " . وكان والدها يحذرها من الاكثار من مطالعة الشعر الغزلي حتى لا يشوش دراستها . ولكنه لما سمع هذه الابيات ،اعاد تحذيره الاول وزاد عليه قوله : "ان الشعر اذا لم يكن باللغات الثلاث . . لا تكون له حلاوة "(٣)

ومن هذا الخبر نستدل ان الشاعرة ، الى جانب استعدادها الفطرى ،كانت مزودة بفيض من الشعر الغزلي القديم ، وحافظة له ومتذوقة له . ومنه ايضا نستطيع ان نضع اصبعنا على نقطة اساسية في هذا الموضوع ،وهي ان غزلها كان في بدئه تقليدا ومحاكاة . وكثيرا ما صرحت الشاعرة نفسها في تصوير بعض قصائدها الغزلية بمثل هذه الجملة " وقالت متغزلة في غير انسان ، والقصد تمرين اللسان " .

---

(١) (٢) حلية الطراز ص ١١٤ وما يليها مقتبس بتصرف ــ المقتطف م ٦٦ ص ٢٨٢

(٣) ــ اشرنا الى هذا الخبر في ص ١٤ من هذه الرسالة ، الفصل الرابع : زواجها .

ومهما يكن من امر ، فان الشاعرة حينما تهيأت لها الظروف ،لاحت لها الفرصة ، شرعت تحرك اوثار قيثارتها ، فانبعثت نغماتها من وراء الخدر ، تحمل طابع الانثى وتغني للحب ، وللحياة ، في حرارة وتفان واستغراق :

حسبي من الحب ما افضى الى تلفي   وما لقيت من الآلام والسقم (١)

* * *

ملك الفؤاد وقد هجر   بدر المحاسن قد ظهر
عذب الرضاب مهفهف   يسبي المتيم بالحور (٢)

بهذه الابيات ارتفع صوتها شاديا مترنما ،وراحت اشواقها المكبونة الى الشعر تتنفس في حدة وانطلاق .

على ان الآنسة مي تستبعد — ومعها الحق — ان تكون هذه الابيات من قبيل تجربة اللسان ، وان تكن عائشة قد جرت فيها مجرى المتغزلين في ذكرى محاسن المحبوب الجسدية ، وبث الحب واللواعج النفسية ، وشكوى الغرام وحرقته .

واذا قبلنا بانها تقليد ومحاكاة ،او تغزل بغير انسان ، فاننا على كل حال نتنسم فيها ، من حيث رشاقتها وخفة وقعها في اللفظ والمعنى والقافية ، نسمات لطيفة من قصائد عمر بن ابي ربيعة . فتكاد بالفاظها وقافيتها تذوب على اللسان .

وهناك ابيات ، اغفل الحاقها بالشعر الغزلي ، تلك التي جعلتها الشاعرة بين الابيات التركية والفارسية والتي منها :

يا شهي الذات يا حلو اللمى   ضاع عمري في "عسى ولعلما" (٣)

وتعلق الآنسة على هذه الابيات الاخيرة ،في معرض حديثها عن خطبتها وزواجها ،فتقول : "هذا ما قالته وهي في الثالثة عشرة من عمرها ، قبل ان تطلق لنفسها ولعواطفها العنان ، وقبل ان يرخص لها رسميا . . فأى الاناشيد تعزّ الان في القلب الصغير ، اذ ترقب "وجهه" من وراء النافذة ؟ وهو داخل ؟ واذ ينقلون من اخباره ؟ واذ تتصوره وتفكر فيه وهو بعيد ؟ واذ تفكر في الغد حين تكون معه . ." (٤)

(١) — حلية الطراز ص ٢٩ وص ٢٢٩ الشعر الغزلي . والبيت الاول لم يرد ذكره الا عند بنت الشاطيء ص ٢٩ من حلية الطراز .

(٢) — الرضاب : الريق المرشوف . يقال : ماء رضاب : اى عذب — المهفهف : الضامر والبطن الدقيق الخصر .

(٣) — سبق ذكرها ص ١٤ من هذه الرسالة . الفصل الرابع : زواجها .

(٤) — حلية الطراز : ٦٥ و ٦٦ — ٢٣٨ و ٢٣٩ .

ويلاحظ في شعرها الغزلي ، انها تنهج نهجا خاصا ، وهي انها تتكلم بلهجة المذكر ، ولعل ذلك لامر في نفسها وهو قصد التعمية والمغالطة بسبب ضغط مجتمعها على عواطف المرأة ،واخراس صوتها . وقد يكون ذلك لامر آخر هو ان عائشة في الاصل مقلدة للرجل . فحرصت على امانة التقليد في اللهجة والمعاني .

ونلمح في بعض قصائدها الغزلية نغمة اندلسية رقيقة كأنما استقتها الشاعرة مما ترسب من محفوظاتها لشعر ابن زيدون في ولادته ، كما في قصيدتها الغائية التي منها :

لاغروان الصبا يأتي بنفحتكم وكلما مر اغدو بالغرام حفي
ولم انل من نسيج الصبح لي اربا يشفي الفؤاد من التسهيد والشغف
الى ان تقول :لما بعدت بعدت بما لا يبصرون به ياسامرى فلا تعجل على تلفي(١)

فهذه الابيات تشبه كثيرا ابيات ابن زيدون الاتية :

ياساري البرق غاد القصر واسق به من كان صرف الهوى والود يسقينا
ويانسيم الصبا بلغ تحيتنا من لو على القرب حيا كان يحيينا(٢)

كما ان حادثة السامرى عندها انعكاس لما نقرؤه في سينيه ابن زيدون :

ورأتني سامريا يتقي منه المساس(٣)

ولها في هذا الفن ايضا المربعات الغنائية والادوار والمواليا ، التي تجمع البساطة ،وسهولة المعنى وفتنة الغرام الضرورية لتوقيع الانشاد . نكتفي بذكر واحد منها ، وهو قولها :

كحل بعينيك ام صبغ من الرحمن جفن من السحر ،ام سحر من الاجفان
خال بخديك امصبغ الديان توحت فكر الانام في الجفن والخالات
تبارك الله ما احلاك من انسان (٤)

وقد كان هذا الموال اول مقابلة معنوية للانسة (مي) في حداثتها المضوى ، دفعتها لدراسة هذه الشاعرة : كان ذلك في مهرجان عرس في حي من احياء فلسطين ،

---

(١) — حلية الطراز : ٦٥ و ٦٦ — ٢٣٨ و ٢٣٩ .
(٢) و (٣) — في الادب الاندلسي ٢١٩ — ٢٣٧ .
(٤) — حلية الطراز ص ٢٥٤ — ٣٩ — ١٢١ .

فاسمعها تصفه لنا : ".. فاذا بصوت ينشد على نقر من العود : وكحل بعينيك .."
سمعت واصغيت بكل قوى الكامنة التي سينميها المستقبل .. لكن كم ذا انتقش الظلام
بالمشاهد الخلابة لذكر ذلك الشخص العجيب .. الذى تاهت به افكار الناس فتجمهرت
لتهتف : تبارك الله ما احلاك من انسان ... كانت تلك نشوتي الموسيقية الاولى فأبقت
في اثرا ، كأنما هو اشارة من روح التيمورية تنبهني . وتنبينتها عند مطالعتي ديوانها
والاهتداء الى ذلك الموال فيه ، فأدركت انها حدثتني منذ زمن بعيد تلك الروح التي
غاصت نفثاتها الحزينة الظروف في ارواح المنشدين فحبست على اوتارهم الحانا ،
وانطلقت على امواج الهواء فنا وتفريدا وابداعا" (١) .

ترى اهل قصدت الشاعرة عند نظم هذه الادوار والمواليا ان تخرجها
للغناء ، ام انها مجرد خطرات عابرة ؟ .

الواقع اننا امام ظاهرة واضحة ، تكاد لا تغيب في جميع عصور الادب العربي
فقد اصطنع بشار الغواني والجوارى ، واصطنع البرامكة ابراهيم المهدى وعلية المهدية
وزرياب المغني ، واخيرا يأتي شوقي في عصرنا هذا فيصطنع المطرب " محمد عبدالوهاب"
والمطربة الآنسة " ام كلثوم " اللذين بويعا بامارة الطرب والفن كما بويع شاعرهما بامارة
الشعر .

ومهما يكن نوع الغزل عند عائشة ، وشكله ، فاننا نستطيع ان نجزم بان الشاعرة
وقفت على معالم الغزل التقليدية المألوفة ، فلامت العواذل ، ورجت ان ترد كيد اللاحي
الى نحره ، وتحدت المتصوفة في التغزل بالخمرة رمزا الى الحب ، كما في قولها :

لاح الصبوح وبهجة الاوقات	فاشرب وعاط الصب بالكاسات
واجلب براحك للقلوب تروحا	فالراح تبدع نشأة اللذات
ودع الوشاة وماتقول عواذلي	فالعين عيني والصفات صفاتي
وانا الشهيد بحب ذوق عصيرها	ان كان في حب الكؤوس مماتي (٢)

وتحدت كذلك الاندلسيين في شعورهم السطحي واصطناعهم تفهم الطبيعة فوصفت
حركات الزهر والماء ، وتصف المحبوب الذى تسميه بالغصن كيف بدا في الروض فاهتز
لظهوره كل مايمكن ان تهزه الفاظ الشاعرة من موجودات .

قد مال كالغصن في روض الصبا الساقي	والناس للميل قد قامت على ساق
والزنبق اغتاظ من ضحك الورود وقد	شق [illegible] فما يلقى له واق

---

(١) (٢) — حلية الطراز ص ٢٥٤ — ٣٩ — ١٢١ .

وقد تعانق دوح السرو من طرب وكاد يلتف ذاك الساق بالساق(١)

على ان الشاعرة لم توفق في وصفها توفيق الاندلسيين انفسهم ، لانها لم تحظ بمشاهد مفاتن الطبيعة والتمتع بمناظرها في ذلك الفردوس المفقود .

ولها قصائد غزلية قالتها خلال رمدها ،وبعد الشفاء منه حينما عادت الى رؤية الاحباب نقرأ منها الابيات التالية :

بكعبة الحسن انسانا ارى فسلوا عيني التي طالما ضلت من الفسق
وخبروني : أ انساني صفاودنا لمستهام رماه البين بالارق ؟ (٢)

وقد انشدت حين شفيت نهائيا تقول :

روحي بقربك قد نالت من الارب ماترتضيه ، فمرها في الهوى تجب
لاتنكرن مزايا الحب ، ان له في الراحتين لراحات من التعب(٣)

ومن روائع غزلها الديني الصوفي قصيدتها الميمية التي توسلت بها الى النبي العربي ومطلعها :

أعن وميض سرى في حندس الظلم ام نسمة هاجت الاشواق من "اضم"(٤)

ويعتبر هذا اللون من الغزل الصوفي ،وماقالته في الرمد والشفاء منه لونا جديدا في غزل التيمورية ، ومن نواحي تجديدها ايضا التغزل بكتبها التي تحبرها ،اذ انها تعدها البيئة المعنوية الصميمة ، فتطلبها اذا طال رمدها كما يطلب الحبيب الغالي :

وقد جفت دواتي وهي تبكي لما قد راعها من طول اسني
واقلامي قد انشقت لأني حرمت مساسها بالاصبعين(٥)

وتختم هذا البحث بالاشارة الى نكتة تكاد تكون الوحيدة في كتابتها عامة ،اقحمتها بوضوح في معظم الموضوعات الشعرية دون تمييز ، تلك هي التهكم من الطب والاطباء ، وقلة ثقتها بأنباء ابقراط الجهابذة النطس . وليت شعرها الغزلي فيه قولها وهو من الادوار :

ارنا زمان الانس باوجه الحبيب واحذر ،حماك الله ،ان يدرى القريب
دعني ،لأني باللقا قلبي يطيب ودع العلاج وما يقول به الطبيب(٦)

---

(١) (٢) (٣) (٤) (٥) (٦) : حلية الطراز : ٢٤٦ — ١١٩ — ٢٦٩ — ٩٤ — ٢٤٤ .

وبعد فهل كان الشاعر النقاد الايطالي " كارد وتشي " على حق حين عدل عن رأيه وقوله المأثور : " اثنان عليهما ان لايقولا الشعر الغزلي . وهما : الكاهن المسيحي والمرأة(١)" ؟ .

لقد رجع عن رأيه ، وصرح بأن "لدى المرأة شيئا تقوله غير ماتنسخه من الرجل . . ."(٢)

—٣—

الرثـــــاء

لقد اصغينا الى الشاعرة وهي تجرب مزمارها في المدح ،وطربنا لها وهي تعزف اشجى الالحان في شكايات الغرام . فلنستمع الآن اليها ، وهي تبكي وتنتحب . ومن الطبيعي ان يكون بكاؤها على درجات : فاذا استعرضنا ماقالته في الرثاء او مايقاربه وجدنا انفسنا اننا امام درجات ثلاث :

ففي الدرجة العليا تأتي مراثيها الاربع لاقاربها : والدها ووالدتها وشقيقتها وابنتها ،ويلحق بها مريثتها لاستاذها ابراهيم السقا الذى تعده القريب المعنوى .

وفي الدرجة الدنيا تأتي قصائدها التي نظمتها في التاريخ لوفاة وما شابهها .

وبين الدرجتين تأتي مراثيها في الخديوى وسائر رجالات البلاط .

ولنبدأ معا عملية الصعود من دنو الى علو ، فتظفر بنخبة من القطع الشعرية التي تؤرخ فيها وفاة بعض الكبار مثل " حسن البارودى " و " موسى بك " . وهذه القطع متشابهة مبني ومعنى وبحرا ، ومشتركة ببيت مقتبس من الآية الكريمة " يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية . . (٣)" . ويغلب عليها ايضا التكرار اللفظي والمعنوى وحشد الاعلام . وحسبنا ان نشير في هذه العجالة الى نموذج منها تؤرخ فيه وفاة حافظ باشا فتقول :

لصبا النعيم صبا " محمد حافظ "	واشتاق من ذاك النسيم شميما
ترك الفناء بأمر من قال : ارجعي	ولقى بغفران الرحيم نعيما
من معجم لامبهم ارخت : قل	قد جاء حافظ ياجنان كريما(٤) ١٣٠٦
١٣٠	١٠٤ ٥ ٩٨٩ " ١٠٤ ٢٠٧" ١٥٥٠"(٥)

(١) و(٢) — حلية الطراز : ص ١٢١ و ١٢٢ .
(٣) — القرآن الكريم سورة الفجر (٨٦) آية (٢٧ ، ٢٨) .
(٤) — حلية الطراز ١٧٣ ، ١٧٤ .
(٥) — هذه الارقام من احصائي واراها لاتتفق مع ارادت الشاعرة تأريخه .

واذا ارتقينا الى الدرجة الثانية ، جابهتنا القصائد الطويلة النفس والمادة في رثاء الخديوى والباشاوات وكبار العلماء . ومن ابرزها مرثية الخديوى توفيق وفيها تقول :.

هل منذر بالقطر اعلن بالثبور ام ساق جيش خطوبه دهر غدور

فزع ألم بآل مصر ونكبـــــة انذارها عم الفبا في والبحـــور

وتفجرت مهج النفوس بحســرة حرقت بحر الجمر اكباد الصدور

وبعد مرحلة من هذا الغلو والتهويل في بكاء الميت تنتقل الشاعرة فجأة وفقا لسنة الرثاء السياسي وطبقا لمبدأ " مات الملك ، عاش الملك " فتقلد الخديوى الجديد اريكته وتنقلب المريثة والعزاء تهنئة ومدحا :

حقق " ابا العباس " عصرك لميزل بسمو ضنو علاك نور (١) فوق نور

محي العزاء ببشر تهنئة غــدت بشجون افئدة البرية كالطهــــور

ثم تؤرخ للحادثة :

بالفوز مصر تجوهرت ارقامهـــا وتتوجت ببهائها بالنصر نــــور (٢) ١٣٠٩ه

(٣) ١٨٦١ ٢٥٦ ٣٧٣ ١٧ ١٢١٥

ومن تاريخ هذه القصيدة فتبين انها نظمت بعد مأساة " توحيدة " ،اى بعد ان بلغت من النضج والكمال في الشاعرية مبلغا عظيما ،وبعد ان عانت عراك الحياة وجربت حدود نصالها . وواضح اثر مرثية ابنتها في هذه القصيدة من حيث وحدة البحر والقافية ،والالفاظ . ولكنها تنقصها العاطفة التي استنزفتها راثية توحيدة . فجاءت هنا باردة ، تجر الالفاظ والقوافي جرا ، ومشحونة بالركاكة والكلفة . ويمكن رد ذلك الى كونها من الآثار المخطوطة لم يتح للشاعرة تنقيحها وتشذيبها .

وعلى هذا النسق جاءت معظم مرثياتها لكبار الباشاوات ، فلم تخرج عن كونها رثاء مدح ، ،ران تشتد معها العاطفة ، او تبرز فيها الحكمة الا ماكان منها في رثاء العلماء الذين تعدهم الشاعرة من صميم اسرتها المعنوية . ومن ذلك رثاؤها للعلامة المرحوم الشيخ " شمس الدين الانبابي " بعد مطلع حكمي تقول فيه :

اياك ان تبتهج بالعيش اياكا مادام كأس الفنا في كف دنياكا

قل للذى اغمضت عينيه غفلتـه : فزع المنايا بفقد الروح اصحاكا

---

(١) — كذا وردت بالرفع . ولعلها ارادت مطابقتها للاية الكريمة " نور على نور يهدى الله بنوره من يشاء . واهملت نصبها على انها حيز (زال) .

(٢) — حلية الطراز ص : ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٣) — هذه الارقام من احصائي ولعلها تطابق التاريخ بالسنوات الميلادية .

ثم تمضي المرثية في بكاء العلم والعالم معا :

قد كنت في الشرق مصباحا فأطفأة	ريح الفناء فكف النور من ذاكا
" جمع الجوامع قد امسى يبدد في	مسائل مالها في الحل الاكا
وبات " ازهرنا " بالحزن متشحا	لما عدلت الى الفردوس مسماكا (١)

ويشتد الخطاب وتقوى العاطفة حين تبكي من هو اشد قرابة معنوية وهو استاذها ابراهيم السقا :

الدهر ابدل راحتي بعناء	واعتاض صفو تنعمي بشقاء
قلبي عليه غدا بالجمرات (٢) الفضا	والوعتي من حره وشقائي
فلأذرفن ،اسى عليه ، مدامعي	مادمت " عائشة " بحذر فنائي (٣)

ويمكننا ان نتحذ من هاتين المرثيتين ، ولا سيما الثانية منهما ، متكأ اساسيا للصعود الى الدرجة الثالثة من هذا السلم ، وهي درجة الرثاء العاطفي لأقربائها ونبدأ برثاء والدتها :

وقد سكتت المصادر عن ذكر تاريخ وفاة والدتها . أكان ذلك قبل وفاة والدها ام بعده ؟ والابيات نفسها لم تنم عن شيء من ذلك . لقد ارسلت الشاعرة صيحتها الاولى مهنئة القبر بنزيلته المحذرة التي لم تسفر لقريب ، الا ان هذه الصيحة لا تنم عن عاطفة المفجوعة الملتاعة :

ياقبر فاهنأ بالتي احرزتها	هي درة في الدرج لاحت تسطع (٤)

غير ان مطلعا مثل هذا يجدر بان يكون خاتمة ،كما كان الامر في مرثيتها لاختها حيث تقول :

ياقبر مهلا قد حظيت بدرة	جلت عن الامثال والانداد (٥)

وبعد هذا المطلع تحدثنا الشاعرة عن مرض والدتها ، وماعانته من تجرع كاسات السقم والفنا في عهد الصبا ، الى ان نضح ماؤها بالنزيف واودى بحياتها :

---

(١) — حلية الطراز ص : ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٢) — حلية الطراز ص : ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٣) — حلية الطراز ص : ١٦١ و ١٦٢ — كذا وردت بتسكين الجيم . وهي ضرورة مخالفة لقواعد النحو .

(٤) — حلية الطراز : ص ٢١٧ .

(٥) — حلية الطراز : ص ١٦١ ولعل هذه الشقيقة هي (عفة) ، بتفوع : من الفوعة من الطيب : رائحته ، ومن السم : حمته وحدته ، ومن الشباب : اوله .

وقد خانها الدهر الملم فأصبحت | بكؤوس اسقام الضنا تتجـرع
ذاقت مرير السقم من عهد الصبـا | حتى قضت ايامها تتوجــع
رحلت وقد افنى النزيف دماءهـا | والقلب في حسراته يتصدع (١)

وشبيه بهذا وصفها لمرض اختها التي اعدمها الزمان في ربيع الصبا ، ولكن مـع شيء من فلسفة الانعدام والايجاد :

وجدت وأعدمها الزمان حياتهـا | ما اقرب الانعدام للايجـاد (٢)

وفي توحيدة تقول :

طافت بشهر الصوم كاسات الردى | سحرا واكواب الدموع تـدور
فتناولت منها ابنتي فتغـيرت | وجنات خد شأنها التغـيير
فذوت ازاهير الحياة بروضهـا | وانقد منها مائس ونضـير
لبست ثياب السقم في صغر وقد | ذاقت شراب الموت وهو مرير (٣)

فاذا عرفنا ان ابنتها ماتت في الثامنة عشرة من عمرها ،وتصفها بالصغر ، فـان قضية رثائها تبقى نسبية وغامضة وتذكر الشاعرة نكتتها التقليدية في التهكم على الطبيب يطاول نفسها او يقصر متحبا لاول زفراتها ولوعاتها على الراحل اوقصرها ففي والدتها تقول :

كم من طبيب لم يكل وطالمـا | داوى ، ولكن داؤها يتفـوع (٤)

وفي شقيقتها تقول :

جاء الطبيب يجس نبض ذراعهـا | فرأى التأثر ليس كالمعتـاد
فتنفس الصعداء مرات وقـد | أعيا ، وقال : اليوم ضل رشادى (٥)
فتنهدت جزعا وقالت : سيـدى | أأموت قبل الترب والانـداد (٦)

وقد ألحت الشاعرة على هذه الفكرة وتفننت في تناولها بأشكال بارعة ، فهي تارة تجعل الطبيب منهزما بدوائه امام اقتحام الداء وطغيانه ، وتبين خذلان القـدرة البشرية وتراجعها امام قدرة الله الاكبر . وتارة تجعل المرض " ريبورتاجا " حيـا تسمعنا فيه انفاس الطبيب مقرا بضلال الرشد ، او تنهدات المريض جزعا وانكارا للموت ، وحينا آخر تفسح المجال للمريض نفسه الذى يستحث الطبيب على المعالجة والتبشـير بالبرء كما في اقوالها في توحيدة ابنتها وفي والدها .

---

(١) — حلية الطراز ص ٢١٧ .
(٢)و(٥)حلية الطراز ص ١٦١ ولعل هذه الشقيقة هي (عفة) ، يتفوع : من الفوعة من الطيب : رائحته ، ومن السم : حمته وحدته ، ومن الشباب : اوله .
(٣)و(٤) حلية الطراز ص ٢٠٦ ومايليها وتقع الرائية في خمسين بيتا .
(٦) — حلية الطراز ص ٢١٧ و ٢١٨ .

فاذا اعتبرنا هذه الظاهرة صبغا جديدا ارقدته التيمورية الى فن الرثاء في الشعر العربي ، فان مراثيها فيماعدا ذلك ، تبقى تقليدية في خصائصها ومميزاتها ، اذ نراها دائما تذهب مذهب القلوفي تعظيم الميت ، والاسراف في تهويل المصاب ،وتتفنن في ارسال زفرات الشكوى من الزمان والدهور التي يتناول جورها حتى الاطواد المتيمة الجبارة :

أواه من فعل الزمان ومكــــره مكر الزمان يذل بالاطـــــواد (١)

واحيانا اخرى تبدو مفجوعة متجلدة متزنة ، تلتمس الدعاء للراحلة ،وتستمطر علـى القبر سحب الرضا وتستسلم لمشيئة الله :

حتى اذا أتى امر الاله ، لها : ادخلي لحدا ، وامر الله لا يسترجع
يارب فاجعل جنة المأ وى لهـــا دارا . لطبيب نعيمها تتمتـــع
واسكب على حصبائها سحب الرضـا فضلا ، وان تك قد سقتها الادمع
وارادة المولى تعالى شــــأنه حتمت لنا هذا ، فماذا نصنع(٢)

او نراها تتفطر حشاشتها ، وتفقد حكمتها ، وتثور ثائرتها ، فتنهال بالسبــاب واللعان على الدهر واللحاد معا لاغتيالهما فريسة خبيئة في خدرها :

تبا لدهر خانها ، واغتالهـا من خدرها كفريســة الآسـاد
كنز اللآلئ ، كيف نختم درجه باليتها شلت يد اللحـاد (٣)

على ان المصاب الاكبر ، والفجيعة العظمى يتمثلان يوم تزرأ الشاعرة بأبيها الذى توفي سنة اثنتين وثمانمئة والف الموافقة لسنة تسع وثمانين ومئتين والف للهجرة ، كما اجمعت بذلك المصادر ، وقد كان هذا الوالد يملأ لها كل فراغ ، وتجد عنده حلول اشد الازمات وهو الحصن الحسي والساعد الوفي ، كان صدره لها ملجأ في الحزن واليـــأس ، وقلبه تعزيه وعونا ، فيوم تفقده تفقد معه كل امل ورجاء ، فتبث مرثيتها كل ما في معين شاعريتها من عاطفة ولوعة وحسرة ، وكل ما في مخيلتها من ابداع وفن ". حتى جاءت القصيدة لوحة كاملة طافحة بالحياة :

امسى لفيف النائحات يحطنــه بدلا عن الندماء والجلســاء (٤)

وترسل بعدها نداءاتها المتتالية ، في كل منها زفرة طويلة تؤكد فيها فضله فـي حسن تنشئتها وغذاء روحها وفوز بنوتها :

---

(١) — حلية الطراز ص ٢١٧ و ٢١٨ .
(٢) — حلية الطراز ص ٢١٧ .
(٣) — حلية الطراز ص ٢١٧ و ٢١٨ .
(٤) — حلية الطراز ص ٢١٥ و ٢١٦ .

يا كنز آمالي وذخر مطالـــبي　　وسعود اقبالي وعين سـنائي
ابتاه قد هشّن الفراق حشاشـتي　　هل يرتضى القلب الشفيق جفائي
يامن بحسن رضاه فوز بنوتـــي　　وعزيز عيشته تمام رخـــائي (١)

واكبر مأساة سما فيها شعر عائشة العاطفي ، او الوجداني الذاتي ، هي فجيعتها بابنتها توحيدة " العروس " على اثر مرض مجهول ذوت به نضرتها شيئا فشيئا الى ان كمت انفاسها .

وقد سكتت المصادر عن تاريخ المأساة . ولكننا بإستقراء بعض النصوص نستطيـع ان نحصل على تاريخ قريب من الصحة .

تقول عائشة : " ... وبعد انقضاء عشر سنوات (٢) كانت الثمرة الاولى مـــن ثمراتي فؤادي " توحيدة " ، نفحة نفسي ، وروح انسي ، قد بلغت التاسعة من عمرها .(٣)" فعلينا اذن ان نضيف الى تاريخ الزواج تسع عشرة سنة ، فيكون ذلك سنة تسعين ومئـتين والف للهجرة ، او سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة والف للميلاد . اما المرثية فقد نظمتهـا سنة اربع وتسعين ومئتين والف للهجرة .

ويرى بعضهم ان اصدق صورة من شعرها ، هي المراثي . ويزعمون ان مرثية ابنتها هي خير مانظمت . وهم برأي الآنسة " مي " متسرعون متساهلون . ولكن ، مارأى الانسة مي في ابن اخيها " محمود بك تيمور " في هذا الصدد ؟ .

يقول الاديب مخاطبا طيف عمته : " ... وعلى الرغم مما كان لقصائدك من مكانـة كريمة عليّ ، وماكان لها من اثر بالغ في نفسي ، فانها كلها تضاءلت يوم املى ابي علـيّ مرثيتك لابنتك .. فقد كانت ابياتك تنساب في وجداني انسيابا ، فتبلغ مكامن الشعور والتأثر ، كأنما يبعثها تيار خفي ... بهذا تعلمت منك ياعمتاه في مطلع أيامي ، ان الاثر الفني الحق ، يقدر باستجابة القلوب له ، واستشفاف البصائر اياه ، قبل ان يقدر برجحانه في موازين العقول والاذهان . فالفن الصادق ، هو الذى يجد له الناس علـى اختلافهم وتفاوت مداركهم صدى في الافئدة ، وتجاوبا في المشاعر ." (٤) .

والحق ان هذه المرثية تعد من الفلتات النادرة التي ظفر بها الشعر العربي ولا سيما النسوي . بل هي دمعة من دمعاته المستمرة . الا انها دمعة صامتة هادئة ، لانسمع معها صوتا للثكلى ، ولا صيحات للجزع . بل تبقى المفجوعة هادئة هدوء المستكين المتزن ، ترسل مدرار دمعها بصمت مكبوت ، لايشوبه عويل ، ولا نحيب ، ولا دعوة الصـــواحب

---

(١) ـ حلية الطراز : ٢١٥ .
(٢) ـ اى عشر سنوات من الزواج الذى كان سنة ١٢٧١ هـ سنة ١٨٥٤ م .
(٣) ـ
(٤) ـ حلية الطراز ص ١٢ ، ١٣ .

الى المشاركة في البكاء كما فعلت الخنساء . وتمضي الشاعرة تصعد كبتها بشاعرية فياضة بالغلو والاسراف ، فقد تصدعت لموتها الخليقة ، وغدت حياة الام سوادا وتهدما وتفجعا. وقد وفقت الشاعرة في تصوير حزنها ولوعتها تصويرا يدل على انها ترثي عن حرقة ولوعة . ووفقت ايضا بالاستشهاد باخبار العرب حينما جعلت مصابها فوق مصاب قيس بـ(ليلى) وضل امامها عراف اليمامه رشاده في التماس البرء :

لو بث حزني في الورى لم يلتفت   لمصاب " قيس " والمصاب كثير
لو جاء عراف " اليمامة " يبتغي   يرثي لرد الطرف وهو حسير (١)

لقد كانت الشاعرة في مديحها وغزلها مقلدة او متحدبة ،مستقية مادة نظمها من الشعر القديم الذى اكثرت من حفظه . فما هو شأن رثائها ؟ .

طبيعي ان تكون " عائشة " هنا اما حزينة ثكلى قبل ان تكون شاعرة ناظمة ،وان يكون المصاب قد حز قلبها حزا انعكس اثره في تدفق المادة وتلهب الشاعرية وقد قيل لاعرابي : " مابال مراثيكم اشرف اشعاركم ؟" قال : " لانا نقولها وقلوبنا محترقة ". على اننا نراها ترضخ لمشيئة ربها ، وتمنى نفسها باللقاء ، فترضى ان تزف توحيدة مع الحور الى ولد أن الجنة :

قلبي وجفني واللسان ، وخالقي ،   راض ، رباك ، شاكر ،وغفور
متعت بالرضوان في خلد الرضا   ما ازّينت لك غرفة وقصور
هذا النعيم به الاحبة تلتقي   لاعيش الا عيشة المبرور

ثم تؤرخ المأساة :

ولك الهناء فصدق تاريخي : بدا   توحيدة زفت ومعها الحور
سنة ١٢٩٤   ٧   ٤٣٣   ٤٨٧   ١٢٢   ٢٤٥ (٢)

وهناك (٣) قصيدة في " ملكة مايو " للشاعر الكبير " تنسن " تتلامس ورائية توحيدة في غير موضع ، مع العلم ان شاعرتنا كانت تجهل اللغة الانكليزية ، فضلا عن جهلها الادب الغربي الرومانتيكي .

---

(١) — حلية الطراز ص ٢٠٩ ومايليها .
(٢) — حلية الطراز ص ٢٠٩ ومايليها .
(٣) — حلية الطراز ص ١١٠ وما يليها مقتبس بتصرف .

تقول فتاة تنكن مودعة والدتها ساعة الموت :

(١)

وتوحيدة تقول :

والقبر صار لغصن قزى روضـة	ريحانها عند المزار زهـور
وتقول :اماه قد عز اللقاء وفي غـد	سترين نعشي كالعروس يسير
قولي لرب اللحد : رفقا بابنتي	جاءت عروسا ساقها التقدير(٢)

وتذكر فتاة " تنكن " حبيبها فتقول :

(٣)

وتوحيدة لا تذكر اسما ، وانما تشير الى الزواج الذى كان قريبا لولا الموت :

اماه قد سلفت لنا امنيـة	ياحسنها لو ساقها التيسير
عودى الى ربع خلا ومآثـر	قد خلفت عني لها تأثـير
صوني جهاز العرس تذكارا ،فلي	قد كان منه الى الزفاف سرور(٤)

(١) — ترجمة الابيات : ادفنوني يا أماه ،في ظل اشجار الزعرور
وزوروني احيانا حيث انا متواريـة
لن انساك يا اماه وعندما تمرين
سأسمع وقع خطاك على الحشيش الغض اللطيف
قد يكون كل ذلك ، ولكن الشيء الثابت ان عائشة على الاجمال قلما حدثتنا عن زوجها ، او اسمعتنا جانبا من حياتها معه .

(٣) — وتعريب هذه الابيات : قولي لردين كلمة مواساة ،وقولي له ان لا يحزن .
كثيرات غيرى خير مني ، قد يجعلنه سعيدا
لو عشت لربما كنت اصير له زوجة
الا ان جميع هذه الاشياء قد تلاشت مع رغبتي في الحياة .

(٢) (٤) — حلية الطراز ص ٢٠٩ ومايليها .

وهكذا جاءت المرثية من فاخر الشعر الراقي الحقيقي المتدفق من اعماق النفس بتأثير الانفعال . ويشبه ما فيها من روائع العواطف الملتهبة والمعاني الخلابة بما في تلك القصيدة الشهيرة المسماة التي تعد من مآثر الشاعر العظيم " فكتور هوغو " ، قالها على لسان امرأة كندية ترثي ابنتها (١) .

واذا كانت التيمورية قد بكت ورثت اقرباء لها ، حتى المعنويين منهم ، فانا لنعجب لسكوتها عن رثاء زوجها الذى عاشت معه حوالي احدى وعشرين سنة ،وقد سكتت من قبل عن التغزل به ،ولطالما تغزل الشاعر او الشاعرة العربية (٢) في ازواجهم او محبيهم . فهل كان ذلك اقتصادا وتعففا منها ؟ ام لضعف عاطفتها نحوه امام طغيان عاطفة العلم والادب وملحقاتهما كالاب والاستاذ ؟ اننا نستشم ذلك من روايات الاخبار التي تقول : انه ماكاد زوجها يموت وتصبح مالكة زمام نفسها ، حتى عادت الى متابعة دراستها .

اما الاقتصاد والتعفف ، فأمر مستبعد ، بل من الطبيعي للنساء ، ان يبكين ازواجهن ويقمن بالحداد الشرعي عليهن اطول مدة . اما ضعف العاطفة : فأمر نستبعده ايضا ، لان الموت ذاته يهيج عاطفة الحزن . فقد يكون سكوتها للمرض والالم الذى لازمها سبع سنين بعد وفاة توحيدة . فشغلها ذلك عن كل شيء . وقد يكون ذلك لاعتزالها الادب عامة وانعكافها على قراءة القرآن الكريم والحديث ، او لعلها قالت شعرا ، ولكن لم يكتب له النشر والبقاء .

وبعد ،فيجدر بنا ان نلقب الشاعرة بـ " خنساء الادب العربي الحديث " . لما اظهرت من براعة فائقة وابتكار فريد في هذا الميدان من الشعر . بل قد تبذها ، لا في دمعتها ، وانما في رثاء نفسها ، متحدية بذلك شاعر تميم ، وهو : " مالك بن الريب ". فقد نظمت ابياتا ،واوصت ان تتلى على قبرها بصوت حسن . " وكان الفضل في نشرها للاستاذ احمد عبد العزيز الذى بعث بها الى الهيئة المختصة باحياء ذكرى وطبع مؤلفاتها سنة خمسين وتسعمئة والف للميلاد . وقد تلا هذه الابيات بالفعل السيد محمد البيلاوى ، نقيب الاشراف ، وعقب عليها بما للسيدة المقبورة من فضل عظيم على كل السيدات (٣) وفي هذه الابيات ترثي الشاعرة نفسها ، وتعزى انجالها ، وتوصيهم ان يتبعوا نعشها الى اللحد :

---

(١) — الهلال م ٣٥ ص ٤٠٨ .
(٢) — كما كان من ليلى الاخيلية في توبة بن الحمير .
(٣) — حلية الطراز ص ٢٠٢ ح الحاشية . والابيات من المخطوط .

قولوا لحبات الفؤاد ومن هم بين الضلوع كنفس روحي قد نموا

بحقوق حقي عندكم لا تجزعـوا لكم البقا ، ولي الهنا ببقاكـم

ارجوكم ياسادة ان تتبعـوا نمشي الى لحدى اذا شيعتم

فيهون تلقيني وتأنس وحشتي بدعاء خير الحاضـرين لديكم(١)

وقد عثرت في "الهلال" على صورة شمسية لبضعة ابيات ، كتبت بخط يدها وكتب تحتها " تاريخ لعائشة من نظمها مكتوب بخطها وقد تركت الشطر الثاني من البيت الاخير لينظم بعد مماتها ، ويضمنه الناظم تاريخها (٢)" وهذه الابيات هي :

قد كنت " عائشة " فنوديت ارجعي للقبر مأوى كل حـي فان

فأتيت حفر الكف عن مرضـاته ومقرة بالعجز والعصيـان

جردت من ثوبي الهدى لكن لي تاج (٣) من الاسلام والايمان

ونزلته مستشفعا بمحمـد وتوسلي عف من الرحمـن

اصبحت ممن زار لحدى واجبا خير الدعا وتلاوة الفرقـان

لكم البقا اخوان ديني فأرخـوا :

قد مات من زفر الردى انسان

١٠٤ ٤٤١ ٩٠ ٢٨٧ ٢٣٦ ١٦٢ ١٣٢٠

---

(١) — حلية الطراز ص ٢٠٢ مع الحاشية . والابيات من المخطوط .

(٢) — الهلال م ٣٥ ص ٤٠٣ والشطر الثاني مع الارقام المقابلة والمساوية له هي من نظمي واحصائي بالتاريخ الهجرى وكلمة " انسان " مخففة من " انساني " قياسا على " ربّ " المخففة من " ربي " .

(٣) — كذا وردت بالرفع . والصواب النصب على انها اسم لكن .

— ب —

الاغراض التجديدية

—١—

شعر المجاملة والمناسبات

المجاملة نوع من السلوك الاجتماعي او العائلي . واسمى انواعه ، هو الذى يتكلفه الانسان بجهد كي يضبط خوالج نفسه ، فيؤمن الانسجام التام مع بني جنسه ، فيشعر بشعورهم ويتودد اليهم دون خبث او رياء .

والمجاملة بحدودها هذه انما تدل على ثقافة نفسية عالية . اذ انها تتطلب تضحية صغيرة او كبيرة في سبيل ارضاء الاخرين ، والاقلاع عن ازعاجهم. ولكنها لا تلبث ان تترك في النفس ، بعد اعتيارها ، شيئا من الارتياح والانس .

وشعر المجاملة عند عائشة هو شعر مناسبات ، اجتماعية او عائلية . ولهذا ، فهي على الغالب مقطوعات ، قصيرة وسريعة ، تلتقط كل ماحولها من احداث وظروف ، وطرق ونوادر ، شأن آلة التصوير ، او الآلة المسجلة ، لا يفوتها شاردة ولا واردة . فمن تنميق دعوة الى تاريخ ولادة ، ومن تهنئة بشفاء او عيد او قدوم سفر ، الى تقريظ كتاب لصديقة اوادبية . . باثة في كل ذلك اخلاصها ومحبتها :

قالت تنمق دعوة :

لقد منّ الاله لنا بسعيد	واشرقت الليالي بالاماني
لكم صفو المسرّة في انتظار	فمنوا بالتعطف والتداني
أجيبوا دعوة الداعي فأنتم	فرائد والمجالس كالجمان(١)

وقالت في دعوة اقتران :

صبح المسرة نوره قد لاحا	والأيك غرد بالسرور وصاحا
وهزار انس الحقل رونقه غدا	طربا بدعوة شوقه وضاحا
بعزيز طلعتكم يضيء سعوده	وينال فوز الاقتران نجاحا(٢)

---

(١) — (٢) — حلية الطراز : ص : ١٠٢ ، ١٧٩ ، ١٧٧ ، وما يليها وهو من المخطوط .

وفي وليمة يقرأ المدعوون هذه المجاملة على لوحة كبيرة :

قد منّ فضلا بالصفا الفتاح   وضياء توفيق الهنا مصباح
والسعد اقبل والعناية سادت   دامت لنا بسرورنا الافراح(١)

ومما قالته في قصيدة السيدة " وردة اليازجي " بعد مطلع غزلي خمرى ، الابيات التالية :

نما ورد الشقائق في رباه   واشرق عرفه من كل غرب
و " وردة " وقتنا للدهر انشت   حديقة بهجة مازال تنبي
بأن خلاصة " اليازجي " ند   سمّي للندا بصحاف سحب(٢)

وهنأت السيدة " زينب فواز " بكتابها " الدر المنثور " فقالت منها :

لمعت لآلي العقد تزهو نضرة(٣)   كصفا لجين راق فيه شمول
دعني وما التقطوه من بحر طما   من قال ذا نعم المناع جهول
اذ ذاك من صدف ،وهذا جوهر   لفظته اذ ثان ذكت وعقول
طبقات منثور بريق ضيائها   كشعاع شمس بالسها موصول
لله در طباق " زينب " اصبحت   بدرا له بين الانام ملول(٤)

وللشاعرة الى جانب ذلك مقطوعات وقصائد عائلية ، واخرى تحدثنا فيها عن مناسباتها الشخصية :

قالت وقد خط الشيب رأسها :

لا تنكروا شيئا ألم بلمتي   فهو النذير لحزم راحلة السفر
ففراق فاني العيش حان ولم اكن   مستيقظا ، فملا بفرقي واستقر(٥)

وكتبت الى احد اولادها تطلب منه ارسال كتاب " درة المختار " :

طروس حررت فورا   فحاكت نسمة الاسحار
سأودعها تحيات   بها عرف الصبا قد سار

---

(١)(٢)— ص : ١٠٢ ، ١٧٩ ، ١٧٧ ، وما يليها وهو من المخطوط .
(٣) — في المخطوط : نضارة ،بدلا من : نضرة . حاشية حلية الطراز ص ١٧٩ .
(٤) — حلية الطراز ص ١٧٩ وهي من المخطوط .
(٥) — حلية الطراز : ٢٠٤ من المخطوط .

الى ان تقول :

وأرجو من معاليكـــــم سريعا " درة المختار" (١)

وقالت مؤرخة ولادة شقيقها :

طابت نفوس اولي النهى برحيق وتكاملت افراحها ب " وفيـــق "
حيا البشير بأنس" احمد" قائلا لاح الهنا بالبشـــر والتوفيق

الى ان تقول :

فاهنأ بمولود بدا تاريخـــه وجه المنا بشراك التوفيـــق (٢)
١٢٨٨ ٦٢٩ ٥٢٣ ١٢٢ ١٤

ووصفت هدية بعث بها عريس شقيقتها الى عروسه فقالت :

تهادينا الزهـــور فعطرتنـــا وللنسمات تعطير مضـــاعف
سألنا ما الذى اذكى اشذاها فقيل لانها نفحات آصـــــف (٣)

وبعد استعراضنا هذه المقطوعات الاجتماعية والعائلية ، نستطيع ان نقول : ان الشاعرة كانت موفقة في الجمع بين وحدة العاطفة ، والسلوك الاجتماعي . كما انهـــا وحدت بين الاغراض النثرية والاغراض الشعرية بأن جعلت الرسالة او دعوة اقـــتران او طلب كتاب التي اعتدنا ان تقرأها نثرا ،جعلتها مقطوعات شعرية بسيطة في اسلوبها ولفظها ، مباشرة في تناولها ، فيما عدا ضبط الوزن والقافية . الا ان هذا التناول ، وهذه البضاعة لم يقدر لها قيما بعد الرواج في السوق الشعرية ، ولم تكن الا بنت يومها وان التيمورية ، وان خطبت بفراغها الهادئ ،ونفسيتها الحزينة ، ومرضها المنقطـــع، متوارية وراء خدرها ،تملأ هذا الفراغ بانتاج ادبي ، الا ان عصرنا ، وهو عصـــر السرعة والخصب لا يتيح لكل اديب مثل هذه الظروف او هذا الفراغ ، وتقول بنت الشاطئ : انها " قضت سبع سنوات كوامل لا تكف عن البكاء والنواح ،حتى كل بصرها وشاخت حياتها قبل ان تبلغ الاربعين ،ونفضت يديها بعد ذلك من الدنيا ، وعاشت للشعر والادب ، تلقي على مسمع الدنيا انات قلبها الثاكل ، وتملأ الافق بأناشيد الحس المرهـــف والمزاج الرقيق والانوثة الشاعرة "(٤) .

---

(١) (٢) حلية الطراز : ٢٠٩ ، ٢١٤ وهذه الارقام من احصائي . وقد قابلتها مع كتاب " تاريخ الاسرة التيمورية " ص ٢٠ ،فوجدت : ولد في ٢٢ شعبان ١٢٨٨ وسماه والده بأحمد توفيق .

(٣) — حلية الطراز ١٠٦ وهذه الشقيقة لعلها " منيرة هانم " التي تزوجت من علي آصف باشا وتوفيت بعد وفاة عائشة ، الفصل الثاني : نسبها واسرتها ص ٠١من هذه الرسالة .

(٤) — حلية الطراز ص ٣٠ ، ٣١ : بنت الشاطئ .

—٢—

شعرها في الرمد ومرض الجفون

ماكادت توحيدة تقضي ،وتغمض عينيها ،حتى فتحت للثكلى صفحة جديدة في عالمها الادبي ،نثرا وشعرا ، فراحت تقطع وقتها في نظم القصائد الجياد ، تزفر فيها ما فينفسها من انتحاب ولوعة ،حتى تقرحت جفونها ، فأنشأت تشكو الالم وتفتدى العين بالعين والمروض ، وتشفع ذلك بالقسم الموءكد :

فدى للعين مني كل عين	وما في الكون من ذهب وعين
ارى الظلماء قد حجبت عياني	واجرت من دموعي كل عين
والقتني بسجن يوسفي	وحالت وبين افراحي وبيني
واقسم ان تحقق لي شفاها	لجدت(١) بما ارى في الراحتين (٢)

ولكن الشاعرة عبثا حاولت ،وأبت العين الا ان تزج بها في غيابة السجن اليوسفي لا لذنب جنته . وتمضي — على غنة هذه النون — في سرد قصتها ، ووصف حزنها وابنتها ، وحرماتها للنوم ،وتقلبها على حر الجمرتين ، وتعقبه بوصف قسوة الطبيب وفظاظته :

فقد اصبحت في حزن واين	وقلبي بين القاب وأين
وما أهدت صبا الاسحار نوما	الى عين غدت في اسرغين
يقلب في دثار السقم جسمي	كأني فوق جمر الحرتين
ومن فظ يهددني جهسارا	بمبضعه المصوب في اليدين (٣)

وفجأة تنتقض المريضة ، بعد الانين والاستكانة ، مسلطة شاعريتها على الاطباء الجفاة ، ثم تماقهم وتتجه بقلبها الى طبيب الكون ورب المشرقين :

تخالفت الاساة بطول وعد	يحللني ، ويأس فيه حيني
وتهدى بالمياه حياة نفسي	فمالي قد ظمئت بماء عيني
فهل هي في سبيل الله غازت	فذاقت باللقا ظلم " الحسين"

الى ان يبلغ القول :

وقد عفت الاساة وعدت اشكو	طبيب الكون رب المشرقين (٤)

---

(١) — كذا الاصل .وهو مخالف لقواعد النحو . لان جواب الشرط لا يقترن باللام . وكذلك الجواب القسم : يكون مضارعا موءكدا لا ماضيا .

(٢)(٣) — حلية الطراز ص ١٩٩ و ٢٠٠ .

(٤) — حلية الطراز : ١٩٩ ومايليها .

وما تكاد المريضة تشفى ، حتى تنعكس آيات نفسها وتزدهي زفرات قلبها ، فتنشد القصائد الطوال في تهنئة نفسها وفي دعوة المهنئين لها :

سفينة العين قد فازت من الغرق   وأشرقت تزدهي من ساحل الحدق
ونورها ضاحك تبدو نواجذه   لما تنفس صبح الصحو عن شفق
قد ضم بالشوق محبوبا يحوزه   من الوشاة يرب النور والفلق
فيا تحيات برء شهدها بفمي   حلى مرارة تسهيدى من القلق
وذا الرشا مذ نشا في حسن طلعته   كانت منازلة شفافة الحدق(١)

وهكذا نرى ان الشاعرة — في هاتين القصيدتين وفي قصائد ومقطوعات اخرى في هذا الموضوع — قد وفقت في دقة الوصف وبراعة التصوير وجودة الخيال واختيار المحسنات البديعة المناسبة ولا سيما في " سفينة العين ".

—٣—

مناجاة نفسها

وبعد ، فهل استنزفت التيمورية كل شاعريتها في تلك الاغراض التي اودعتها ما في نفسها من هواجس ومشاعر ؟ ام ان هناك شيئا محجوبا لابد من التنقيب عنه ؟.

هناك الكلوم البليغة التي نالت من نفس الشاعرة ، وهزتها الى العظم ، وهذه الكلام لاتزال بحاجة الى بلسم يشفيها ويصلح بينها ، وسيكون هذا البلسم من كنه هذه الانسانة وجوهر مادتها ، تستخلصه من اناتها الشاكية الحزينة ، المشحونة بزفراتها المستمرة " وداوني بالتي كانت هي الداء ".

قالت تعلل نفسها :

اعلل نفسي والأماني كثيرة   وماكان اغنى النفس عن ذا التعلل
فلا الوقت في امرى فأقضي مآربي   ولا الدهر يصفو لي فأكمد في عذلي
ولا النيل يدنو لي فأروى بفيضه   ولا الصبر طوع لي فتحلو الحياة لي
ولا لوم ان واريت في الترب جثتي   وقلت : اقيمي حيث ذلك منزلي(٢)

واضح وصريح ان التيمورية في البيت الاخير تجنبد الانتحار والتخلص من الحياة فلم تنعم بوقت ، ولم يصف لها دهر ، ولم تحل لها الحياة ، بل هي دائما .

اسير في الحمى لم ترغبوه   فقير للمراحم فارحموه (٣)

---

(١) (٢) — حلية الطراز : ١٨٦ — ١٩١ ، ٢٠١ .
(٣) — حلية الطراز ص ٢٠٨ حاشية : في الاصل هل ترغبوه .

صحيح الجسم ذو كبد جـريح   وقلب في لظى مذ قلبـــوه
له صدر يحوز لكل فـــن   ولكن قلبه قد ضيعـــــوه (١)

ولها قصيدة طويلة ، فيها وصف رائع للطبيعة في " حلوان " ، التي قصدتهـــا ليلا طلبا للاستشفاء من الرمد ، وقد جاءت هذه القصيدة بأسلوب قصصي رشيق ،تتابعت فيه الاحداث والصور . فاسمعها تقول :

رحلت ليلا ، ولم اصبر لغدوته   وخلت حمامها كهفا " للقمان "
وقمت منتظرا طبا ببقعتهــــا   في وحشة بين اوتاد وكثبـا ن
اذا بماتيه هاجت وقد عصفـت   كأنها النفخ من حلقـوم شيطان
أقامت الطامة الكبرى لعيني ام   زفت عروس لسلطان من الجان (٢)
ام سحب حلوانكم قد امطرت عسلا   ام لاقت الارض كبريتا بنـــيران
ام نفخة الصور تعني ان غدوتكم   يوم النشور وفيها قسـط ميزان (٣)

وهكذا تستمر القصيدة بهذا الخصب الحيوى من الانفاس والاصباغ والالوان والاقتباس من القرآن الكريم .

—٤—

الفخر والحكمة والاخلاق

وقد اصطلحت على درجها في زمرة الاغراض التجديدية تجوزا . ولطالما سبقـــت التيمورية الى مثل هذه الاغراض والمعاني . الا ان التجديد هنا يبقى في كونها منبعثة من صوت شاعرة ، رخيم شجي ندى .

ومن المستحسن لنا ، ان نستأنس ، في الصدد ، بما كتبه ابن اخي الشـــاعرة " محمود بك تيمور " في مقدمة ديوانها بعنوان عمتي . يقول : " .. ولقد كانـت قصائدك باكورة ماقرأت وماحفظت . فما انسى يوم اقبل ابي ، يدفع الى ورقة خط فيهـا ابياتا ، ضبطها بالمداد الاحمر ،ومالبث ان قال لي : اقرأ ،فاطمت متمهلا في القـراءة خشية العثار :

(١) — حلية الطراز ص ٢٠١ .
(٢) — كذا الاصل .
(٣) — حلية الطراز ٢٠٢ — ٢٠٤ .

بيد العفاف اصون عز حجـــــابي   وبعصمتي اسمـو على اترابي

واصلت قراءتي ، وعن يميني ابي ، يرنو الي ، وهو يصوب الخطأ ويشرح الصعب ويفيض في الابانة والافهام . . . وهكذا تلقيت من شعرك اول قبسة من نور الفضيلة ، واسبق نغمة من مكارم الاخلاق .

واذكر اننا نحن الاشقاء الثلاثة (١) كنا في منصرفنا من المدرسة نتخذ من تلـــك القصيدة ، السامية في اهدافها ومراميها ، انشودة الطريق نتسلى بالترنم بها في نشوة وابتهاج . والتزم ابي يملي علي من قصيدك فيما يختار من اشتات المنظوم والمنثور ، فتجمع في كناشتي (٢) الصغيرة كثير من شعرك ، يزاحم " قفانبك . ." وقصص " بيدبـــا " وما الى ذلك من فوائد الادب وعيونه . ." (٣) .

هذه هي ذكريات طفل ، حول قصيدة وأبيات ، أتيت بها لابين ان لكل شيء ظروفه ومناسباته المقدرة له منذ الازل . فاذا كانت الآنسة " مي " قد جرت لها مقابلة معنـــوية مع التيمورية منذ باكورة طفولتها في الموال الذى سمعته يغني في مهرجانات العرس ، فان " عائشة " قد همست سحرها في اذني ، وتحدث قصائدها الي منذ عشر سنوات . وكنت معجبة ببضعة ابيات من بائيتها هذه التي اعجبت هذا الطفل . وكانت هي المناسبة لاختياري دراسة هذه الشاعرة .

ولعل هذه البائية من التائية ، التي هي اطول قصائدها وتقع في ثمانية وستين بيتا ، من ابرز ماقالته الشاعرة في هذا الموضوع . وقد جالت فيها الاقلام ، وحارت بها الافكار وسالت نغماتها على لسان الطالبات والفتيات ، لقرب معانيها وعذوبة الفاظها وسهولة مبناها .

ففي القصيدة البائية تفخر الشاعرة بنفسها ، ويعز حجابها ، وبفكرتها الوقادة . . وتبرز فضلها على ذوات الخدر والاحساب اللائي كنّ يغبطنها بحضرتها وغيبتها . فلا تـــرى الشاعرة سبيلا الا اقحامهن بهذا الفخر :

بيد العفاف اصون عز حجـــــابي   وبعصمتي أسمو على اتـــرابي
وبفكرة وقادة وقريحـــــــــــــة   لقادة قد كملـــــــت آدابي
ولقد نظمت الشعر شيمة معشـــر   قبلي ، ذوات الخدر والاحساب (٤)

---

(١) — هم المرحومان محمد بك تيمور ، واسماعيل بك تيمور . ومحدثنا الاديب الكبـــير انجال احمد تيمور باشا .

(٢) — الكناشة : مجموعة كالدفتر تدرج فيها الشوارد والفوائد .

(٣) — حلية الطراز ص ١٢ .

(٤) — حلية الطراز ص ٢٦٥ وما يليها .

وتضفي بعد ذلك الشاعرة على افكارها شيئا من الغلو والغرور الى حد تستفيد من قريناتها بالتمائم والحجب :

وخصصت بالدر الثمين وحامت الـ . . . خنساء في " صخر " وجوب صماب
كم زخرفت وجنات طرسي انملي بعذار خط او اهاب شـباب
ولكم زها شمع الزكا وتضوعـت بعبير قولي روضة الاحبـاب
عوذت من فكرى فنون بلاغـتي بتميمة غرا وحرز حجـاب
ماعاقني خجلي عن العليا ولا سدل الخمار بلمتي ونقـابي(١)

وتمضي الشاعرة في هذا الغرور، تعد نفسها انها " سر مصون كنهه " ،كالمسك تارة ،واللآلئ تارة اخرى ، او كالعنبر حينا آخر . لا بل هي شعلة منيرة لمصباح البراعة التي هي منح الاله الوهاب . .

يا لها من فتاة مغرورة . لقد اصبحت موضع لومنا وعتبنا . ولكن غلبنا ان لا نتسرع في اللوم اللاذع ، وان لا تخدش ذوقها الناعم واحساسها المرهف . علينا قبل ذلـك ان نسلط على مجتمعها عدسة مكبرة تنعكس عليها اضواء ، توضح لنا صلة هذه المغـرورة مع بني جلدتها ،وضوحا حقيقيا بكل مافيه من توتر وصلابة . عندئذ ، نرى ان الفتاة قد اثيرت ، وحملت حملا على الاندفاع بهذا الفخر والتمدح . ومحال على العاقـل المتزن ان ينطلق مثل هذا الانطلاق من لا شيء ، كما يحال على النبع ان ينبجس لألاءه خلال الحصباء البراقة دون ان تعمل فيه يد او معول ، او ان يوطأ بقدم .

لقد كانت حال التيمورية " حال الاديب الصميم . . انه سرعان مايتصدى له من يناقض ويماكس ، ويتحطى ليقدم ويؤخر ،ويفصل في قماشه ويخيط . سرعان ماتنبرى لـه للعالمين من يقدح ويهجو ، لسبب ولغير سبب ، وقد يمتدح باخلاص ولكن ببلاهـة فيجعل الذبابة فوق النسر او يسيرهما في فلك واحد . . (٢) . وقد تحسست الشـاعرة بثاقب نظرها خطأ مثل هذا القياس . فأرادت ان تردعهم بقولها :

الناس شتى في الصفات فلا تكن ممن يقيس الدر يوما بالبرد
ان قست فظا بالرقيق فلا تلـم ،من بعد ،نفسك ، في الورى أبدا ،احد(٣)

---

(١) — حلية الطراز ص ٢٦٥ ومايليها .
(٢) — حلية الطراز ص ٨٦ ومايليها .
(٣) — حلية الطراز ص٨٦ ومايليها .

بهذه العبارات النقدية استطاعت الآنسة مي ان تصور لنا حال عائشة " الابية " ادق تصوير . وتعقب على ذلك بحادثة تدعم بها صدق تصويرها ، فتقول : " اجتمعت في اول مايو من سنة اثنتين وعشرين وتسعمئة والف بالاستاذ الشيخ الغمراوى المفتش الاول للغة العربية . فذكرت عائشة ، فقال : انها شاعرة عصرها ، وان اساؤوا فهم كثير من معانيها ..." وان ماقالته " يقرر امرا واقعا تألمت من جرائه . ذلك ان بعض السيدات كن يسممن عليها الثناء الذى لم تربحه الا بالكفاءة والكرامة ، فيثور منهن الحسد فيعمدن الى تشويه الحقائق والتحريف والتعريض ، ويشعرن بالقصور عن مجاراتها فيستسلمن لتعذيبها والحاق الاذى بها على مختلف الاساليب انتقاما لنفوسهن من تفوقها . فشعرت بهذا وتألمت وقالت ماقالت ." (١) فالشاعرة اذن قد سعدت بشخصيات كالشيخ الغمراوى ينصفونها ويقدرون ظروفها الحرجة ،وما كان بينها وبين وسطها من عدم التفاهم . ومع ذلك فكانت تبذل الجهد في سبيل تأمين الانسجام مع مجتمعها ، في حين هو لم يأبه لها ، ولم يبد لملاقاتها اهتماما :

عقدت عزمي وهم حلوا عزائمهم ... وفي العزائم محلول ومعقود
ابدى ائتلافا ،ويبدون الخلاف وقد ... غدا لهم في جيوش الهجر تجريد
وكم اقابلهم مستنجزا ولهم ... لسوء حظي في الاعراض تزيد (٢)

ومن ذلك قولها :

وكم حليقة سعد اذ تعنفني ... تقول سميك مزموم النهايات
فأخفض الطرف من حزن أكابده ... واهمل الدمع من تلك المقالات (٣)

اجل لقد لجأت الشاعرة الى دموعها ،تذرفها عند تطاول الحاسد ، في خلوة لاذعة محرقة ، ثم تلجأ الى قلمها ومدادها : ولكنها دائما وابدا تبقى مثالا للمرأة الحليمة المتجلدة ،تقابل الشر بالخير حتى نفاذ الصبر :

وكلما عددوا ذنبا رميت به ... بسطت للعفو راحات اعترافاتي
وكلما حرروا منشور مظلمتي ... واظهروا في الورى غدرا جناياتي
اظهرت شكرى لهم بالرغم من اسفي ... وكان ماكان من فرط التهاباتي (٤)

---

(١) — حلية الطراز : ٨٦ ومايليها .
(٢) — حلية الطراز : ٩٠ .
(٣) (٤) — حلية الطراز ١٩٦ ومايليها .

ويظل القلب المعذب على نبله ، الى ان تتجه عائشة الى القلب الرؤوف الاكبر الذى لا يقلقه انين البرايا :

ولم ازل اشتكي بثي ومظلمـــتي   لمالم الجهر مني والخفيــات (١)

ولعمرى ، ان موقف الشاعرة هذا من مجتمعها وبنات جنسها ، يذكرني الى حـد بعيد بموقف الشاعر العربي المقتنع الكندى من بني ابيه واهله ومبادهتهم له بالعـداء والحقد ، حيث يقول :

وان الذى بيني وبين بني ابـني   وبين بني عمي لمختلف جـــدا
فان اكلوا لحمي وفرت لحومهـم   وان هدموا مجدى بنيت لهم مجدا
وان بادهوني بالعداوة لم اكن   ابادهم الا بما يثبت الرشـــدا
وان قطعوا الاواصر صلـــة   وصلت لهم مني المحبة والـــودا
ولا احمل الحقد القديم عليهـم   وليس كريم القوم من يحمل الحقدا
لهم جلّ مالي ان تتابع بي غـنى   وان قل مالي لم اكلفهم رفـــدا (٢)

ولقد كان لكل هذه الاحداث والتحديات ، التي جابهتها التيمورية ، الاثر الاكبر في خلق الشاعرة الحكيمة . فالمعادن لا يعرف غثها من ثمينها الا بعد اختبارها بالحـك والبرق لا يسطع سناؤه الا عندما تصطدم بالغيوم المتنافرة المتضادة . وكذلك حكيمتنا ، لم تبرق في هذا الظلام الا بعد ان عركت وعركتها الحياة فراحت تتلمس طريقها بتؤدة ، وتتلمس مفاوزها ببصيرة حتى نفذت الى الوجود ،تجس نبض العلل والمفاسد ،وتمدهـا بالحكمة الناجعة ،والدواء الشافي ، فزادت رقة حس ،ودقة ذوق ادبي ،وحضور بديهـــة ، وصارت لا تغضي لها عين على قذى ،ولا تسكت عن شاردة ولا واردة الا وترميها بحكمـــة او نصيحة . فهي ان راقبت الناس ،ولاحظت منهم التلحظ للشر ، والتنقيب عن الفـرص لينالوا من غيرهم ،ويزلوا بهم الاذى ، انشأت تذكرهم بلهجة الازدراء .

آل الغرور لقد ساقوا بخائبهم   شرقا فغربا فداست كل ما لاقت
ظنوا الزمان على رغم يطاوعهـم   وان اوقاته طوعا لهم راقـــت
وليس الا عدوا سوف يفجـــؤهم   برقط غدر الى عاداتها اشتاقت (٣)

والشطر الثاني من البيت الاخير يذكرنا بحكيم المعرة الذى كثيرا ما شبه الدهر والدنيـا بالحية الرقطاء .

(١) — حلية الطراز ١٩٦ .
(٢) — من محفوظاتي القديمة .
(٣) — حلية الطراز ٨٩ .

وتبحث الشاعرة عن حسن الوفاء والود الصادق ،ولكنها عبثا تحاول :

حسن الوفاء وصدق الود قد صدعا   واستوحشا بغيا في الغدر وانصدعا
كلاهما من سقام لا مساس لـــه   حزنا على الحق والانصـــاف مذ صرعا (١)

فتندفع في التحذير والانذار والزاجر بهذه الحكمة :

لاتفرحن يدينا اقبلت وصنعـت   بكل ماترتضي واحذر عواقبهـــا (٢)

وتحذر وتنذر ثانية :

ان الدهاة وان ابدوا بشاشتهم   فلا تقل بغرور فاتني الغضـب
فكم يحلو شراب سم مقتلـــه   والاسد تبسم اذ يبدو لها العطب (٣)

وشبيه به قول المتنبي :

اذا رأيت نيوب الليث بـارزة   فلا تظنن ان الليث يبتســـم (٤)

ومن حكمها في مدح الخديوى قولها :

لكن على قدر الفتى اعمـــاله   تبدو ،ومن ذا كان ذا التنسيق (٥)

ومنها في رثاء اسماعيل باشاسيرى جاعلة الموت احلى صورة ، والقبر حيز مأوى ،قولها :

والموت شامة كل حي في الورى   والقبر مأوى ، والرحيم غفـــور (٦)

واحيانا تشوب حكمتها شيء من الزهوكما في رثائها للشيخ شمس الدين الانبابي :

اياك ان تبتهج بالعيش ايـاك   مادام كأس الفنا في كف دنياكا (٧)

ولا تنسى اخيرا ان تقرأ الحكمة على نفسها ، حينما يضيق ذرعها ،وينفذ صبرهـــا ، فتحاول الانتحار ثم تهدأ :

ولولا الصبر جدت ببذل روحـي   لمن حيا بقربك والتـــداني
ولم ابخل بها حبا بعيـــش   وعيش المرء مهما طال فـان (٨)

وتمضي بعد ذلك الحكيمة ، ومعلمة الاخلاق والادب ، تلقن مجتمعها بعض المبادىء والقيم الاخلاقية السديدة . وهذه المبادىء ، وان كانت بطبيعتها مطروقة مألوفة لا جدة

---

(١) — حلية الطراز ص ٢٦٧ .   (٢)(٣)— حلية الطراز ص ٢٦٦ .
(٤) — ديوان العرف الطيب ص٣٤٢ .   (٥)— حلية الطراز ص ١٥٦ .
(٦) — حلية الطراز ١٧١ .   (٧)— حلية الطراز ص ١١٥ .
(٨) — حلية الطراز ١٩٢ .

فيها ، الا انها تعتبر بحق ، خطوة جريئة خطتها المرأة المصرية باقدام وعزيمة . فنراها تنصح في انتهاج طريق العفة والصلاح في قولها :

ما الحظ الا امتلاك المرء عفته   وما السعادة الا حسن اخلاق (١)

وتنصح بالاقلاع عن البخل :

ربّ الدراهم احصاها وعددها   في حصن اكياسه الفا على ألف

والحمد لله اذ عدى لمسبحتي   وعن سواها تراني قاصر الطرف (٢)

وتوصي بحفظ اللسان :

احفظ لسانك من ذم الانام ودع   امر الجميع لمن امضاه في القدم

معايب الناس لا يكون عن غلطي   اذا نممت بها في محفل الهمم (٣)

ومن اجلّ ما توصى به المرأة هو الاحتجاب وصيانة النفس . ومن قولها فيهما :

بيد العفاف اصون عز حجابي   وبعصمتي اسمو على اترابي (٤)

وتقول :

وما احتجابي عن عيب اتيت به   وانما الصون من شأني وغاياتي (٥)

وقد تضاربت الاقلام ، وتباينت الاقوال في تخريج هذه الابيات ، وموقف الشاعرة نفسها من قضيتي السفور والحجاب . اذ يبدو من مقارنة شعر عائشة مع نثرها انها متناقضة مع نفسها . فهي تارة تفاخر بحجابها واسدال الخمار بلمتها ونقابها :

ماعاقني خجلي عن العليا ولا   سدل الخمار بلمتي ونقابي (٦)

وتارة اخرى تشكوه في نثرها ، وتقول : انه حرمها من مجالسة اهل الفضل والادب وحال دون استزادتها مما ترغب فيه من العلم والمعرفة . "... لم يكن لي دخول محافل العلماء والمتفقهين .. فكم التهب صدري بنار شوق الى ما فلهم . وادرجفني ، على حرماني من اجتنائي ثمرات فوائدهم ، درر المدامع . وقد عاقني عن الفوز بهذا الامل خيمة الازار ، وحجبني قفل خدر التأنيث من ستائر تلك الاقمار واحلاني بسجن الجهل حليف اثقال واوزار . فكانت تلك الحجب لمن لام في هفوات هذا المسطور اكبر اعذار

---

(١) ـ حلية الطراز ١٢٥ .   (٢) ـ حلية الطراز ٢٦٦ .
(٣) ـ حلية الطراز ١٢٥ .   (٤) ـ حلية الطراز ٢٦٥ .
(٥) ـ حلية الطراز ١٩٦ .   (٦) ـ حلية الطراز ٢٥٦ .

فلا تلوموا معشر الافاضل خبية ،ولا تعبثوا بسجينة شجية "(١) فما هو وجه التوفيق بين هذين الموقفين ؟ .

لنمر اولا سريعا على بعض التفاسير والنظارات التي اتت على اقلام الكتاب والادباء حول هذه الابيات :

تقول الانسة مي : " ان الصون لا يقوم باسدال الخمار ، كما ان التبذل ليس قائما بالسفور ، وانما الصيانة والعفة ملكتان نبيلتان من ملكات النفس ، تخضع لهما المرأة بصرف النظر عن الزى في هندام رأسها وجسدها "(٢) .

ويقول الاستاذ عبد الحميد حمدى : " قد يرى بعضهم في قولها : " بيد العفاف.." انها لم تكن لتناصر السفور واصحابه . والواقع ان هذا البيت لا يدل على شيء من ذلك . فهي قد جعلت الجوهر " : العفاف . وهي " بالعفاف " تصون عز حجابها الذى كان موجودا فعلا . ولم تقل انها تصون بالحجاب " العفاف " . على ان نزعة عائشة وتألمها من القيود التي كانت تحول بينها وبين حضور المجالس ، ثم مقالها المعنون : " لا تصلح العائلات الا بتربية البنات ". وغير ذلك كله يدل على انها لو طال بها الزمن لكانت من اشد انصار السفور ، واقواهم حجة . اما في حياتها فليس لدينا دليل على انها كانت سافرة "(٣) .

ولا بد من مناقشة سريعة لهذه الآراء ،مع حفظ الاحترام والاقرار بفضل اصحابها :

اما رأى الآنسة " مي " فانه صحيح في ذهنها وعملا بالمبدأ العام : "انما الاعمال بالنيات" . على ان الامر يبقى مختذلا لانه متعلق بالعبادة والخلق معا . فلا بد له من اثر ظاهرى الى جانب النية ، عملا بالآية " اعملوا فسيرى الله عملكم.." واذ لم وعلى فرض وجود الصيانة والعفة في خبيئة كل انثى ، فلا بد من احتجاب المرأة المسلمة بالحجاب الشرعي الذى اجمعت الديانات السماوية على تحديده وأباحت معه كشف ما تدعو الضرورة الى كشفه كالكفين والوجه.. ويبقى بعد ذلك للامر مرونة في الزى والهندام اللذين يتكيفان وفقا للعصور والاجيال والاعراف ،وضمن حدود الاعتدال والاحتشام.

اما ماقاله الاستاذ عبد الحميد حمدى ، فانه لم يزد في الامر اكثر من انه اتى بتعابير واصطلاحات استعارها من علماء الفلاسفة واهل الكلام ،زادت الفكرة تعمية وتعقيدا وجعلتها تتأرجح بين "العرض" و " الجوهر" ، دون ان يخرج بواحد من الرأيين : هل كانت التيمورية من دعاة السفور ام من دعاة الحجاب ؟ وانما اتى ، بعد ان اتكأ على

---

(١) — حلية الطراز ، حاشية نتائج الاحوال : ص ٨٠ .
(٢) — حلية الطراز ١٢٥ .
(٣) — السياسة الاسبوعية عدد ١٠٢ ص ١٠ .

حجج ليست بجانبه ، اتى بكلمة " لو " التي لم تسطر الا احتمالا لا نؤيده ولا نرده الا بعد ان ننفذ الى نوايا التيمورية الراحلة .

ولكني ارى ان هذه المرأة لم يكن ليعوقها عائق عن تحطيم ماشاءت من قيود مجتمعها وبيئتها ،فقد تغزلت ، ومدحت ،ونقدت ، ولو كانت عازمة ومصممة على السفور لسفرت .

وهنا تعجبني بعض العبارات والحجج تفضل بها فضيلة المربي الكبير الاستاذ " علي بك الطنطاوى " ،اثبتها بنصها وبما فيها من روح قائلها واسلوبه المرح :

" ان من يقول بمذهب اسقاط الصلة بين الصون والعفاف ، وبين الزى والثياب هو مايسميه اصحاب المنطق ب (قياس المغالطة) . ومقتضى هذا القياس ان يطيل الثوب كمن يقصره وان القاضي الذى يدخل المحكمة بلا (الروب) كمن يعلو قوس المحاكمة بثياب هزلية ، ومن يحضر الحفلة الرسمية بالحلة السوداء كمن يجيئها بثياب السباحة ، وان الفتاة التي تمشي في الطريق بالمعطف الاسود ، كالتي تمشي ب (شلحة) التبذل . وهذا واضح البطلان . وان بين الثياب ومكانة صاحبها ، بل وتفكيره وسلوكه ،صلة ظاهرة ، وقد غلا صاحب فلسفة الملابس " كارلايل " حين جعل الملابس كل شيء . . . وعلى كل فلا ادرى كيف رضي الرجال ،باللباس العادى ، ان يستروا ماعدا الوجه والكفين (تقريبا) وتأباه المرأة على نفسها "(١) .

وآخر ما اقوله في هذا الصدد هو ان ماتراه الاديبة في شعرها او نثرها انما هو اقرارها الامور الثلاثة الاتية : فهي تقر الحجاب ، وانه لم يمنعها من العلم ، بل تأسف لما نعها عرف الناس وتفكير البيئة من حضور مجالس الرجال ومناقشة العلماء . على حين ان الدين لا يأباه ان كان مع ماقدمناه من شروط في جواز الاختلاط (٢) وان ماتشكوه " في نثرها لا يعد شكوى من الحجاب في ذاته ، بل من عرف العصر . بدليل انها لوكانت سافرة في تلك الايام لما استطاعت الى ذلك سبيلا . وواضح ان هذه الامور بحدودها وشروطها المذكورة لا تتنافى مع الدين في شيء .

---

(١) — مقابلة شخصية مع فضيلة الاستاذ .

(٢) — واعني بها : الستر والحجاب الشرعي ، وان يكون الاختلاط في غير خلوة مقورة ، وان تكون في حدود الصيانة والعفة والديانة .

—٥—

شعرها الديني

وبعد هذه الغيبة الطويلة ،التي قطعتها في تضاعيف الفخر والحكمة والاخـــلاق ، اقول : ان المرأة التي ظفرت بخلق كيانها الادبي والاجتماعي والخلقي ،جديرة بأن تحوطها العناية الالهية ،وتأخذ بعونها اليد السحرية ،متسابقة لها الى حيث تشاء من السحر ، والكمال ،تحفها العاطفة الروحانية العميقة ،والفعالية الدينية المتدفقة .

وتمثل التيمورية بحق النموذج الكامل للمرأة المسلمة الصالحة منذ طفولتها حـــتى وفاتها . فكانت " تجد الراحة الكبرى في الصلاة والالتجاء الى الله الذى هو وحده يسعده ويشقي "(١) وتؤيد الآنسة مي صلاح هذه الاديبة وتقاها ، بشهادة سمعتها من شقيقتها الفضال المرحوم " احمد تيمور باشا " وهي قوله : " انها كانت تقية ، تصلي وتصوم وتقوم بكل الفرائض الدينية "(٢) .

ونحن نجد مصداق ذلك في آثارها النثرية او الشعرية . فهي لا تني عن ذكر الله ، والالتجاء اليه في كل وقت ، وعند كل مناسبة او ضائقة وفي اى باب تطرقه ،واشد ماتبـدو هذه الظاهرة في شعرها الغزلي الصوفي ،وتهدف فيه — شأن الغزل الصوفي عامـة — الى تعشق الله ورسوله ،وحب المبادئ السامية ،والعواطف الانسانية النبيلة ،باثة فيـه كل ما في نفسها من لواعج مكبوتة ،وعواطف متأججة ،مرسلة اياها في نداءات تطلقهـــا في ابيات مستغيثة ومتوسلة الى الطليعة المحمدية كقولها :

ياخالق الحب كم انقذت ولهانـــا	يارافع السبع كم ارشدت حـــيرانا
يامن حدوث الورى والدهر في قدم	له ،ومهما يقل للامر : كن ،كانا
يامن له ام موسى عندما طلبـــت	ازال عنها بجمع الشمل اخـزانا
القت بيم النوى تابوت مهجتهـــا	اسدلت لطفا يقي في اليم انسانا
بحق اسرار عشاق لها شـغف	بطلعة الحب او مابان احيـــانا ،
تغيث قلبي وتهدى عين باصرتي	ولا تدعني بوادى النية ولهـــانا (٣)

وهكذا تتحدى التيمورية بتصوفها الشعراء المتصوفين ،وتحاكي في حبها لله الشاعرة المتصوفة " رابعة العدوية " التي نحفظ لها من مأثور اقوالها الصوفية عبارتها التالية :
" الهي ، ان كنت اعبدك رغبة بجنتك ، فاحرمنيها ، وان كنت اعبدك خوفا من نارك ، فاحرقني فيها ، وان كنت اعبدك حبا لذاتك فلاتحرمني من رحمتك "(٤)

---

(١) — حلية الطراز ص ١٢٨ . (٢) — حلية الطراز ص ١٢٩ .
(٣) — حلية الطراز ١٦١ ومايليها وهذه القصيدة تذكر بجرسها وبحرها وقافيتها بقصيدة جرير التي مطلعها " بان الخليط . . .
(٤) — من محفوظاتي القديمة .

وقد تستغرق التيمورية في الزهد والاستسلام الحتفاني ، في ساعات الشدة او الالم او التضجر من الناس ، او الخلوة الى النفس ، شأنها في ذلك ، شأن كل حي حينما يجزع مما يهدده ، من حاجة او مرض او عجز او الم او موت ، فيلجأ الى قوة عليها تهيمن على عوز البشر وبؤسهم . ويبتهل اليها مستسلما لعوامل رحمتها واحكام حكمتها .

وقد يبعث هذا الاستغراق لدى التيمورية احيانا الى انتفاضة عنيفة ،فتندفع في الفخر والتمدح وتقول :

رفعت بآفاق المنى رايـــاتي وسما سناء النصر في مشـكاني
وصحاف فوزى بالكواكب نقطـــت فتلا عطارد افقها آياتـــي (١)

وبعد قليل من هذا الفخر ، لا تلبث ان تقر بذنوبها وتأسف على هفواتها :

فأنا المقر بما جنيت وليس لـــي عذر سوى أسفي على هفواتي (٢)
فلأشكرن شدائداً لو لم تكـــن ماكنت ادرى ذلتي لممـــاتي (٣)

وتلمح مثل هذا الاستسلام الهادئ في نهاية رثائها لوالدتها حيث تقول :

يارب فاجعل جنة المأوى لهـــا دارا بطيب نعيمها تتمتـــع
واسكب على حصبائها سحب الرضا فضلا وان تك قوسقتها الادمع

الى ان تقول :

وارادة المولى تعالى شـــأنه حتمت لنا هذا . فماذا نصنع ؟ (٤)

والامر نفسه يبدو لنا حينما تفجع بوالدها ،وكذلك ابنتها ،الا ان موقفها من الاخيرة هو موقف رضى وشكر :

قلبي وجفني واللســان ، وخالقي ، راض وباك ، شاكر وغفـــور (٥)

والى جانب هذا الاستشفاع والتوسل الى اقربائها في رثائهم نراها تتوسل لنفسها وتستشفع الله كما رأينا في ابياتها المخطوطة التي اشير اليها بأنها " تاريخ لعائشة من نظمها ،وفيها تقول :

---

(١) — حلية الطراز ٢٠٦ . (٢) — هكذا الاصل بتسكين الفاء .
(٣) — حلية الطراز ٢٠٧ . (٤) — حلية الطراز ٢١٧ .
(٥) — ص ٤٢ من هذه الرسالة — الهلال م ٣٥ ص ٤٠٣ ولم اعثر في غير هذا المصدر على هذه الابيات ولا في ديوانها .

قد كنت عائشة فنوديت : ارجعي : للقبر مأوى كل حي فا ن

ومنها بمنزلته مستشفعا بمحمـــــــــد وتوسلي عف من الرحمن (١)

لمب الهوى بفؤاد صب نــائي وسناه تأسي لوعة وعنــاء

ماباله لزم الهوى حتى غـــدا في الحب لم يبرح عن البرحاء

الى ان تقول :

ان كان عصياني وسوء جنايـــتي عظما ،وصرت مهددا بجزائي

يامن يرى ما في الضمير ولا يرى اني رجوتك ان تجيب دعائي

ياعالم الشكوى وحر توجعـــــي دائي عظيم القرح ،جد بدوائي (٢)

ومن ابتهالاتها : ابيات سكبتها الشاعرة بقالب الاستفهام والتساؤل ، امتد بها نفسها في عشرين بيتا ومنها :

اين الطريق لابواب الفتوحـا ت اين السبيل الى نيل المتابات

اين الدليل الذى ارجو الرشاد به الى سبيل المعالي والهدايات

وتختمها بقولها :

فلم يسعني بأثقال الذنوب سوى ساحات غفران علام الخفيات (٣)

على ان هذه الابتهالات على كونها ، تبقى سطحية ،واقل روعة وجدة مما سبقت التيمورية اليه في هذا الغرض . فلم تأت بمعان او عواطف مبتكرة تصلح لان تعد رفدا جديدا في فن التصوف والابتهال . وانما الجدة اتت من كونها اصواتا انبعثت من نفس مرهفـــة ونداءات هي اكثر نعومة وحنانا .

وقد يكون (٤) صوت هذه المرأة المصرية صدى خافتا ، او تجاوبا ميتا فيزيكيا لصوت سبعة في الصداح والشدو منذ قرون اربعة سلفت ، وعلى بعد ثلاثمئة عام .. هو صـــــوت القديسية الاسبانية " تريزا " التي عاشت في القرن السادس عشر ، وقد عرفت هذه المرأة بفرط تقواها ،ونقاء نفسها ،وروحانيتها الحارة ،وشغفها بالسيد المسيح الذى كانـــت تتخيل انه يتجلى لها في ساعات الانخطاف والرؤيا ، ويخاطبها . وقد نظمت شعـــرا ابتهاليا جميلا في الاسبانية . منه نشيد قصير ترجو الله فيه ان يمن عليها بالمنـــون لتتجرد من ثوبها الترابي ، فتراه وجها لوجه . فهي في ذلك النشيد الملتهب تقول :

---

(١) — ص ٤٢ من هذه الرسالة — الهلال م٣٥ ص ٤٠٣ ولم اعثر في غير هذا المصدر على هذه الابيات ولا في ديوانها .

(٢) — حلية الطراز ٢٧١ .

(٣) — حلية الطراز ١٦٥ .

(٤) — حلية الطراز ١٣٠ ومايليها بتصرف .

احيا دون ان احيا في نفسي
وانتظر حياة ، هكذا رفيعة حتى اني
لأموت ، لأني لا أموت

* * *

انظر كيف اذوب شوقا لرؤياك ،
ولا طاقة لي على الحياة بدونك حتى
اني لأموت ، لاني لا أموت

وبالمقارنة ، تبين الفرق بين القديستين ، وهو ان المسيحية واثقة رضي الله عنها ، عالمة بحبه لها ، وانما تعذبها قيود الجسد التي تشد وثاقها بالارض ، وتحول دون فناء روحها في روح الله . ففي صيحتها شيء من التدلل على المحبوب ، وفيها كذلك صدق الشوق ونشوة الظفر . اما التيمورية ، فانها تبدو ذليلة في لهجتها ، وكأنها تيأس لولا رحمة الله الواسعة ، ولولا شفاعة النبي الكريم الذى تلوذ بحماه ، ونترنم بمدحه وتمجيده .

ومن رائع مانظمته التيمورية في هذا الغرض ايضا ، قصيدتها الميمية التي تعارض فيها بردة البوصيرى مقتبسة منها كثيرا من المعاني والالفاظ والقوافي . وفيها تقول :

أعن وميض تعرى في حندس الظلم ام نسمة هاجت الاشواق من "اضم" (١)
فجددت لي عهدا بالغرام مضى وشاقني نحو احبابي "بذى سلم" (٢)

وتستغرق التيمورية طويلا في هذا المطلع الغزلي ، مقلدة ومستعيرة الفاظ العذريين ومعانيهم وتعابيرهم ، التي تمثل الحب الانساني العادى ، لتعبر عن اشواقها الروحية المنبعثة من تقديسها مبادىء الرسول وتقديرها له . وقد استحدثت مادتها الفنية من بيئة الرسول صلى الله عليه وسلم واستخدمت اسماء المواضع التي تهيج الذى في القلب : كالبان ، وذى سلم ، واضم .

على ان المقلدة لم توفق توفيق المقلد ، بل انحطت عنه في جذالة الالفاظ واحكام البناء . ولعل شوقي كان اكثر توفيقا في معارضة لميمية البوصيرى . ومع ذلك فانا نحتفظ للتيمورية بفضل الاسبقية ، وغيرة المعارضة في عالم الشعر النسوى بالنسبة الى ذلك العصر فقدمت قصيدة طويلة ، متعددة الالوان والانفاس واللهجات ، فمن غزل الى ابتهال ،

---

(١) — اضم وذوى سلم اسماء امكنة في الحجاز قرب المدينة المنورة .
(٢) — حلية الطراز ٢٦٩ —٢٧٠ .

ومن توسل ، الى وصف الجنان والينابيع . كما انها حاكت المتصوفة في استخدام المعاني الرمزية ،وتأييدها بالحجج والادلة ،وقد اقتفت على ذلك شيئا من الخيال والصور اللطيفة التي اتكأت عليها في اظهار عاطفتها الروحية ومن ذلك قولها :

طه الذى قد كسى (١) اشراق بهجته — وجه الوجود سناء الرشد والكرم
طه الذى كللت انوار سنته — تيجان امته فضلا على الامم
روحي الفداء ومن لي ان اكون له — هذا الفداء ، وموجودى كمنعدم

الى ان يبلغ بها القول :

يا خير من ارتجي ،ان لم تكن مددى — وازلتي ، يوم وضع القسط ،وا نومي
فاشفع بحب الذى ،انت الحبيب له — لولاك ما ابرز الدنيا من العدم
عليك ازكى صلاة الله ما افتتحت — ادوار دهر ،ومادلت بمختتم (٢)

* * *

---

(١) — كذا الاصل . والصواب بالالف لانها واوية .

(٢) — حلية الطراز : ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

الفصل الثاني

نثرها

لقد حملت التيمورية لواء الادب النسوى بشقيه : الشعر والنثر . وقد شاهدنا كيف انها " لم تكن لتنظم نوعا واحدا من الشعر ، بل كانت تنظم في الغزل والتوسل والاستغاثة والرثاء "(١) ، الى جانب اغراض مستحدثة اخرى .

اما النثر فقد راحت تجوب بثاقب بصرها الاوساط الاجتماعية المختلفة ،وينال منها قلمها الرشيق - بذل ما اوتيه من فن وبراعة - نقدا وجرحا ،او نصحا وحكمة وارشادا .فكانت بذلك باعثة للاصلاح الاجتماعي ، وعاملة على شق سبيله لبنات جنسها بمعول من نور .

وقد كتبت التيمورية في موضوعات اجتماعية شتى ،وابحاث نسوية عديدة . فعالجت ترتبية الابناء ،والواجبات المتبادلة بين الزوجين ،ومشكلة سفور المرأة وحجابها والاقتصاد في زينتها . فكانت الثروة والوراثة التي خلفتها ،ضئيلة في كميتها ،الا انها كبيرة وعظيمة بما يجب ان يضاف اليها من نتاج غيرها ،امثال : "امينة نجيب ،وباحثة البادية " ، وغيرهما ، اللواتي اقتفين اثرها وتتلمذن عليها . ولم تغمض للتيمورية عين ، الا بعد ان اطمأنت الى الظفر الاكيد في تأدية بلاغها ،وبث رسالتها في قومها .

ومن اهم مؤلفاتها النثرية ،كتاب في النقد الاجتماعي بعنوان " نتائج الاحوال في الاقوال والافعال ". استهلته الكاتبة بمقدمة تشرح فيها الباعث على تأليفه فتقول :" والتقط من تلك النوادر واعاجيب القدر ، وما طالع من التواريخ ماقدرت قدرتي ان تدانيه ،وما امكن فكرتي الخالدة ان تصل الى فهم معانيه . . . ولما تأملت في سير سير الامم ،وتحققت ان السعد والنحس منوطان بالقدر من القدم ، وقد شاهدت - والله - في نفسي صدق هذا الخبر . . فدعتني الرأفة بكل مغبون ، لقي مالقيت ،ودهي بما دهيت ، الى ان ابدع له احدوثته تسلية عن اشجانه عند تزاحم الافكار . . ." (٢) .

فنسيج الكتاب اذن هو قصة او مجموعة قصص متداخلة ،محاكة مما رسب في مخيلة الكاتبة من حكم النوادر والقصص ،وما تمخضت عنه التجارب والمحن الشخصية التي عانتها خلال اربع وستين عاما .

وقصة الكتاب تحوم حول ملك مولع بابنه ولما ادنى به الى الاستسلام الى تلبية

---

(١) - اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام ص ٢٠٩ .

(٢) - حلية الطراز ص ١٣٣ .

رغباته ، وعدم التعرض لصد اهوائه ، فسادت اخلاقه ، وشرست طباعه ، وراحت تتجاذبه تيارات المصلحين من جهة ، والمرشدين من جهة ثانية ، وتتناهشه كلاليب الحساد والدساسين فادى ذلك الى تشابك المصائب والويلات عليه ، حتى اتمت المحن تهذيبه ، وعادت اليه حقوقه ومسراته ، ونال جميع رغباته ، ومن ثم ، سمي الكتاب بنتائج الاحوال .

وكان هدف التيمورية من هذا الكتاب هو ارشاد الوالد الى مصير اهمال تربية ابنه وافهامه انه ان قصر في ذلك ، فان الطبيعة كفيلة بتثقيفه ، او بالذهاب بحياته ، وهلاكه وكانت في خلال ثنايا القصة تشير الى مواطن خلقية ومبادىء اجتماعية ، وتبين ان الحق الذى يدعمه الصدق والاستقامة ، والامانة والصلاح لن يطغى عليه مذهب او ثورة اجتماعية .

ثم توجه الكاتبة منظار نقدها وجهة اخرى ، فترى المشكلات العائلية قد احاطت بالمجتمع من كل جانب . فترمي برسالتها الشافية ، وهي " مرآة التأمل في الامور " . وفيها تعتب على الرجل الذى يؤدى به الطمع الى اختيار زوجة غنية ، فيسيء التصرف بأموالها مندفعا وراء مرحه ولهوه ، وتنفد ذات يده ، فتتوتر العلاقات الزوجية بينهما ، ويتضعضع ركن البناء العائلي الذى يئول الى واحد من الامرين : فناء المرأة غيظا وصبرا ، او الطلاق والفراق وتشتت الاطفال .

ويبدو ان لهذه الرسالة في اوساط الرجال اثرا اكبر مما نشرته من رسائل ومقالات اخرى وانبرت أقلام الرد عليها من كل جانب لم يصلنا منها — او لم اعثر — الا على كتاب " لسان الجهور على مرآة التأمل في الامور " للاستاذ " عبد الله وافي الفيومي ". (١)

على ان الكاتبة اللبقة لا تلبث ان تعدل كفه ميزانها النقدى في مقال بعنوان : " لا تصلح العائلات الا بتربية البنات ". وفي هذه المرة تسلط قلمها بالعتب واللوم على المرأة او الفتاة عامة ، فتأخذ عليها غلوها في الزينة ، والافراط في لبس الحلي الذهبية او المستعارة . وتبين لها ان ذلك مدعاة الى الغرور والمباهاة ، اللذين قد يؤديان بها الى الفجور . وهي " تعجب من مدنية تشغف بتزيين فتاتها بحلي مستعار ، وتستعين على اظهار جمالها بزخرف المعادن والاحجار . وتتخيل انها زادتهن بسطة في الحسن والدلال . والحال انها القت تلك الاحداث في اخدود الوبال . لانه لم يعد عليهن من تلك المستعارات الا العجب والغرور ، المؤدى بهن الى ساحات المباهاة والفجور . وذلك لكف بصيرتهن عن الادراك ، وعدم علمهن بنتائج الاحوال وعواقب الامور ." (٢) .

---

(١) — لم يشر الى هذا الكتاب الا .
(٢) — حلية الطراز ١٤٣ وما يليها .

ويفهم من تاريخ نشر هذه الرسالة (١) انه كان قبل وفاتها باربعة عشر عاماً . اما رسالة " التأمل " فلا نعرف تاريخ نشرها ، ولكن نعرف ان كاتبتها قد ختمتها — على طريقة ذلك العصر الكتابي — بامتداح سمو الخديوى " عباس حلمي باشا " ، اى بعد سنة اثنتين وتسعين وثمانمئة والف للميلاد ، وفي السنوات العشر الاخيرة من حياتها .

ويغلب على الظن ان كتاب " نتائج الاحوال " قد نشر في تلك الفترة ايضا ، لما ينم عن عقل حصيف وتجارب حكيم . وتقول صاحبة " الدر " انها طبعته بعد ان نشرت ديوان حلية الطراز . والذى يؤيد رأيها ان الكاتبة ضمنته ابياتا في الحكم والاخلاق (٢) استشهدت بها على وقائع الاحداث والقصص التي تسردها .

وهناك امور اجتماعية اخرى اشبعتها الكاتبة بحثا سواء في شعرها او نثرها ، منها الدعوة الى تعليم المرأة . وقد سبقها الى هذه الدعوة " رفاعة رافع الطهطاوى " . الا انها كانت اكثر تحمسا واستجابة لالهاب افئدة بنات قومها . وقد دعا الطهطاوى الى نهضة المرأة عامة بكتابه " المرشد الامين للبنات والبنين " واشار الى وجوب تعليم الفتيات " لان ذلك يزيدهن ادبا وعقلا ويصلحن لمشاركة الرجال في الكلام والرأى . . . وهو من شأنه ان يشغل المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة " (٣) .

اما رأى التيمورية في مشكلة السفور والحجاب فقد اتينا على ذكره سابقا (٤) وحسبنا هنا ان تقول ان ميولها تغلب الى الحجاب الشرعي المعتدل الذى لا يعوق الاختلاط الادبي المحتشم ولا ينافي انتهال العلم والادب من اى مورد . الا ان " الباحثة " من بعدها كانت اكثر جرأة وصراحة ، واعنف في الرد على دعاة السفور ولا سيما " عبد الحميد حمدى " بل نراها احيانا تأخذ في ان ترسم للنساء نوعا من اللباس يستر الشعر والمعصمين والجسم . ومنه تتدرج الى نقد لباس الاوربيات وتبرجهن وتوسعهن في الاختلاط . وتوصي الانسة " مي " ، في هذا الصدد حين ترد عليها ، بالتأني والتحفظ في الدعوة الى الانتقال من طور الى طور (٥) .

ومن اصلاحات التيمورية ايضا دعوتها بصراحة الى المساواة بين المرأة والرجل ، واشتراكهما في المجتمع كل ضمن اختصاصه . " اذ لو امكن الانفراد للرجل لخصه الله

---

(١) — يرجع الى ص ٢٦ من هذه الرسالة .
(٢) — واكثر ما استشهدت به ابيات من القصيدة الثلثية ص ٢٠٦ من حلية الطراز .
(٣) — كتاب الهلال حاشية عدد ٨ ص ١٨٦ .
(٤) — يرجع الى ص ٥٢ وما يليها من هذه الرسالة .
(٥) — محاضرات عن مي زيادة : ٧٣ ، ٩٠ ، ٦٣ .

بالوجود دون المرأة . فهما ضروريان كل منهما للآخر . وموجودان مما تحت شمس واحدة واحكام واحدة ، ليأتي كل بقسطه من واجبات متعادلة " (١) .

ولكن يبقى للتيمورية ، من المرأة المسلمة ، موقف التزمت والاسراف في المحافظة ولا سيما في مقالاتها حين تصطنع فيها لسان الفقهاء ، فهي اذ تقر المساواة ، الا انها تدعو المجتمع الى الحرص على ان يكون للرجال حقهم في الزعامة والقوامة على المرأة دون افراط . وفي ذلك تقول : " قد اراني من لا تراه العيون ،وامره بين الكاف والنون ، سبل الهدى والصواب . فما امرنا بتلاوته من آيات الكتاب ، فبين صريح المقال . حقوق الرجال من النساء ،وحقوق النساء على الرجال . فقال : " الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم (٢) ". وهي لا ترضى عن مجتمع (٣) تنقلب فيه الاوضاع ليكون حظ الرجال في اموره واعماله دون حظ النساء . خلافا لما ينبغي ان يكون عليه الامر من العكس وتضرب على ذلك مثالا بقصة تحوكها من نسيج خيالها عن (الاسد واللبوة) .

وتصطنع التيمورية كذلك لسان الحكماء لتصور جانبا من مواقف الرجال من النســـاء حين يريدون تصنيفهن والاستعلاء عليهن . فتقول :

ان الفتوة قوة ومهابـــــة ليست بقول المرء كان الوالـــد (٤)

وهذا يشبه قول القائل " ان الفتى من يقول ها انذا ليس الفتى من يقول : كان ابي ".

وتقول :

المجد ينشئ بيتا لا جدار له والجبن يهدم ما أنشـــته آباء (٥)

وهو يشبه قولهم :

العلم يرفع بيتا لاعماد لـــه والجهل يهدم بيت العـز والكرم

وللتيمورية آثار نثرية اخرى . منها تمثيليات لم اعثر على اثر منها . وقيل ان بعضا منها مثل كرواية " اللقا بعد الشتات " وبعضها ضاع ، والبعض الآخر بقي مخطوطا . ولها ايضا مقالات نشرت في جريدتي الآداب والمؤيد وسائر صحف زمانها . ولها رسائل خاصة تبادلتها الادبية مع الاتراب اللائي يعاصرنها ويبادلتها الود والاخلاص. وفي مقدمتهن : السيدة وردة اليازجي وزينب فواز . غير ان هذه الوسائل ليست اكثر من سبك الكلام اللطيف ،والثناء المأنوس ،والنظم الحلو الرنان حسب اسلوب المجاملة النسائية للكتابة في ذلك العصر .

---

(١) — حلية الطراز ١٤٦ .
(٢) — القرآن الكريم : سورة النساء (٤/ ٣٣) .
(٣) — بلاغة النساء في ق ٢٠ ص ١٠٠ ، ١٠١ .
(٤) (٥) — بلاغة النساء ص ١٠٨ — ١١٠ .

الفصـــل الثالث

اسـلوبها الادبي

في الشعر والنثر

ونستطيع ان نضيف ـ الى جانب ما اتينا على ذكره من الخصائص الاسلوبية ،حين دلاستنا اغراضها الشعرية وافكارها وآرائها النثرية ،وبعد الاستقراء الشامل لديوانها نضيف بعض الملاحظات البارزة التي تتعلق بالالفاظ او بالتراكيب او بالمعاني :

ـ منها انها تكثر من تضمين اسمها " عائشة " الذى خصته بشعرها العربي . كما خصت اسم (عصمة) بشعرها التركي والفارسي ، واسم (التيمورية) بالنثر . فمن قولها في رثاء ابراهيم السقا :

فلأذرفن اسى عليه مدامعي ما دمت " عائشة " بخدر فنائي (١) ١٦٣

ومنه في تهنئة قدوم :

اهدى رفيع رحاب دولة عزها ما دمت " عائشة " بخير دعائي ١٨٠

ومنه : سأصرع بالشفاء لكل خل لمن ـ ما دمت" عائشة" شفائي ١٩٢

ومنه في تهنئة والدة الخديوى :

ما دمت " عائشة " في ظل ساحتها اتلو الثنا بلسان مخلص لهج ١٨٣

ومنه : ان الشهيد على قول افوه به ما دمت " عائشة " فالحمد غاياتي ١٩٩

ومنه في رثاء توحيدة :

ان قيل " عائشة " اقول لقد فني عيشي وصبرى والاله خبير ٢١١

ومنه حينما ابتدأ اخوها بالقراءة :

بحبيبك الهادى تبلغنا الرضا ما دمت " عائشة " ولاح بريق ٢١٥

ـ وهي تكثر من استعمال كلمة " ازينت " وهي كلمة قرآنية ذات جرس موسيقي يبتدى في هذه الزاى المضعفة .

ومنه في المدح قولها :

حل الخديوى بمعالي السعد مبتهجا وازينت مصر اذ نالت امانيها ١٥٧

---

(١) ـ الارقام الجانبية تشير الى رقم الصفحة من حلية الطراز.

ومنه في المدح قولها :

حل السعود بمصرنا وازينـــت   والموكب السامي ســـراج سروجها ١٥٧

ومنه وقد كتب على لوحات الزينة :

والارض قد البست ابهى مطارقها   وازينت في بديع الحلي والحلـــل ١٦١

ومنه في رثاء توحيدة :

متعت بالرضوان في خلد الرضـا   ماازينت بك غرفة وقصـــــور ٢١١

— ومن ابرز خصائصها الاسلوبية انها شديدة الحرص على الاقتباس من القرآن الكريم مع شيء من تكرار الاستعمال :

كقولها متغزلة :

تبت يداه فكم يالكف اعصـــبني   عن اللقا وانثنى للزحف في تلفـــي ٢٣٦

ومنه في رثاء السقا :

تبت يدا زمن دهانا صرفـــــه   بفراقه في ليلة ليـــــلاء ١٦٢

ومنه ضمن رسالة :

تبت يدا سائق الاظعان مارسمت   يداه للعيس سير الابيق الرســـم ١٦٧

ومنه في المخطوط :

نور العلوم قد انثنى بصـــائرهم   وبات يتلو لها :نور على نـــور ١٨٥

ومنه في الادوار الرباعية :

قسما بلحظك والخـــــدود   وبنارها ذات الوقـــــــود ٢٣١

ومنه في غزلها من المربعات :

وجعلت ألثم منه خط غـــداره   فأشار لي بالخط وهو كظـــيم ٢٤٤

ومنـــــه :

وليس عليه وزر في ولـــــوعي   وما المولى بظـــــلام العبيد ٢٦٤

— وهي اخيرا في معظم رثائها تردد — بعد قول مضمر او ظاهر — ماهو في معـــنى الآية الكريمة " يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك .." . وقد اشرنا الى ذلك في حينه واستشهدنا عليه بما هو كاف عن اعادته .

والى جانب الميزات الشخصية هناك ميزات عامة اقسمت بها الاساليب الادبيــــة في ذلك العصر . فلم تنج التيمورية من قيودها . وطبيعي ان يؤثر الذوق الادبي العام الذى هو خلاصة للاحداث العامة السياسية او الاجتماعية او الفكرية ، طبيعي ان يؤثر قليلا او كثيرا على الاديب ويسلبه شيئا من حريته . وقد اقسم عصر عائشة بتقليد السلف في الاساليب والصــفة والتقيد باللفظ ، والتاريخ للاحداث في الشعر والتشطير والتخميس والتشجيع في النثر (١) الا ان سعة اطلاع التيمورية وتبحرها في اللغات الثلاث او نبوغها في الشعــــر عن سليقة وسجية ، جعل لها ميزة خاصة في احكام فنها ، وحسن ذوقها وصدق عواطفهــــا ونقاء لغتها ، واحتفائها بالمعنى ، وعذوبة اللفظ ، ولا سيما في مراثيها التي تدل على انهــا ترثي عن حرقة ولوعة .

اما في شعر المدح ، والمجاملة والمناسبات فان " تهذيبها وادبها ، وتعاليمهـــا عن المداهنة والرياء ، قد يكون له اثره في امتصاص شاعريتها الزاهية ، والتضيق علـــــى عواطفها ، فيبدو لونه باهتا ، وصوته خافتا ، وقراره هابطا مخفقا " (٢) .

وتتضح نزعتها الى القديم في شعرها الغزلي من حيث التشبيهات والاستعارات ، فاللحاظ سيوفا ، والخدود ورود والقدود غصون بان ، والاسنان برد .. كل ذلك بأسلوب خفيف والفاظ فن وتذوب على اللسان .

وبالجملة : فان شعرها يبقى سلس الاسلوب ، لا تعقيد في افكاره ، ولا غريب في كلماته لانها مستمدة من صميم الحياة ودافعها . مسايرة فطرتها السليمة وذوقها الناعم ، وعاطفتها المرهفة .

اما في النثر فقد رأينا ان الباعث على تأليف بعضها ، التسلية لمن يد همه الشجون . لذلك سكبته بقالب يفي بهذا الغرض . فجرت فيه على اسلوب المقامات ، وعلى غرار كليلة ودمنه ، تتشابك فيها القصة الصغيرة باختها ، وتفترض الحبل وتتخيل الحلول . على ان سجعهـــا وحذ لغتها وكناياتها " كانت في عنايتها بوقائعها ، تشبه عناية الحسان في صنع الثنايـــا والشبائك والتخاريم (الدنتيلا) ودقتها " (٣) . وهذه الاشياء وان كانت تدعو الى سآمة وملل القارىء المصرى الا انها — كما ذكرنا اكثر من مرة — هي من مستلزمات العصر ومقتضياته . بل هي اكثر اقتصادا فيها من الادباء المعاصرين لها .

---

(١) — لقد ذكرنا نصوصا فن نثرها في القسم الثاني من حياتها الشخصية وغيرها ماهــو بالغنى عن اعادته هنا .

(٢) — محاضرات عن مي زيادة ص ٢٠ .

(٣) — الهلال : ص ٤٠٦

الخـــــاتمة

وبعد ،فقد آن لي ان اخط الاسطر الاخيرة من هذه الرسالة ،مقرة بالاعجاب والفضل لعائشة التيمورية ،لما اتحفت الادب الحديث بآثار شعرية ونثرية قيمة . فان هذه الآثار على علاتها وهناتها بنظر الناقد المعاصر - تمثل بصيص نور في ادب المرأة العربية . واحسب بعد هذا اني على حق ان وسمت التيمورية بـ " الام الباعثة " للتلميذة " الباحثة " واخواتها اللواتي عهدت اليهن متابعة نضال الاقلام والصحف في سبيل الاصلاح الاجتماعي والعائلي ،فهي " رائدة الطريق في هذا الميدان ، وهي المصباح الاول في ليل الحياة النسوية ،القت شعاعها في ظلامه الدامس ، فيسرت للعيون رؤية ماحولها من حقائق" (١).

وآخر ما اسطره في هذه الخاتمة هو ان اتقدم بجزيل الشكر والمنة الى استاذى المشرف الدكتور " امجد بك الطرابلسي " لما قدمه الي من حسن التوجيه وجيد الملاحظات . واشكر بالتالي كل من مد الي يد العون المادى او المعنوى ،ولاسيما الاديب المفضال " محمود تيمور بك" ابن اخي صاحبة هذه الدراسة ،والاستاذ " علي بك الطنطاوى" والدكتور " شكرى بك فيصل " ،واخيرا ،القارئ الكريم الذى ارجو ان يعذرني ان لاحظ بعض التقصير المعنوى بحق دراسة هذه الشاعرة ،او شيئا من الهفات والهفوات التي فلتت مني . وما العصمة والكمال الا لله وحده .

... ...

المصادر والمراجع -

القسم الاول : القرآن الكريم.

القسم الثاني : آثار الادبية .

١- حلية الطراز : ديوان عائشة التيمورية القاهرة مطبعة دار الكتب العربي مصورة ١٣٧١هـ

٢- نتائج الاحوال في الاقوال والافعال : القاهرة مطبعة محمد مصطفى ١٣٠٥هـ

٣- رسالة مرآة التأمل في الامور : القاهرة ١٣١٠هـ

٤- الديوان التركي والفارسي (شكوفه : القاهرة، تونس، القسطنطينية ايران- -

القسم الثالث : الكتب التي تناولتها بالبحث :

١- الدر المنثور في طبقات ربات الخدور : زينب فواز: المطبعة الاميرية ببولاق مصر ١٣١٢هـ

٢- الاعلام : خير الدين الزركلي الجزء الثاني :المطبعة العربية بمصر ١٣٤٦هـ١٩٢٧م

٣- معجم المطبوعات العربية : سركيس مطبعة سركيس بمصر ١٣٤٦هـ١٩٢٨م

٤- شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي : عباس محمود العقاد القاهرة مك النهضة ١٣٥٥هـ١٩٣٧م

٥- بلاغة النساء في القرن العشرين : فتحية احمد : مطبعة السعادة بمصر - -

٦- الشعر النسائي العصرى وشهيرات نجومه : محمد محمود مطبعة دار الترقي بمصر ١٣٤٧هـ١٩٢٧م

٧- تاريخ الاسرة التيمورية : احمد تيمور باشا : مطبعة دار التأليف بمصر - -

٨- محاضرات عن مي زيادة : الدكتور منصور فهمي القاهرة مطبعة دار الهنا ببولاق مصر ١٣٧٣ ١٩٥٤

٩- اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام : رضا كحاله الجزء الثاني المطبعة الهاشمية بدمشق ١٣٥٨ ١٩٤٠

١٠- كتاب الهلال العدد ٦٨ : الانسة مي زيادة القاهرة دار الهلال مصورة ١٣٧٦ ١٩٥٦

١١- مصادر الدراسة الادبية الجزء الثاني : يوسف اسعد داغر بيروت

القسم الرابع : مقالات المجلات العربية

١- السياسة الاسبوعية : عبد الحميد حمدى عدد ١٠٢ (١١ فبراير) مصورة ١٣٤٦ ١٩٢٨

٢- الهلال : عبد الفتاح عبادة مجلد ٣٥ مصورة ١٣٤٤ ١٩٢٦

٣- الرسالة : اسحق شموس بمناسبة مرور اربعين عاما على وفاتها ١٣٦٠ ١٩٤٢

٤- المقتطف : الانسة مي زيادة مجلد : ٦٢ سنة ١٩٢٣، ٦٤ سنة ١٩٢٤، ٦٦/١٩٢٥

٥- المقتطف : اصول النهضة النسوية في مصر : الانسة مي مجلد ٦٨ يناير ١٩٢٦

٦- المقتطف : احدى قارئات المقتطف مجلد : ٢٧ يوليو ١٩٠٢

القسم الخامس : المصادر الثانوية :

١- في الادب الاندلسي : للدكتور جودت الركابي
مطبعة الجامعة السورية ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م
٢- ادباء العرب في عصر الاندلس والانبعاث بطرس البستاني
بيروت مكتبة صادر ١٣٥٥ ١٩٣٧